القسم الأول

الاستشراق

مفهومه وأهمية تحديد المصطلح

- مصطلح الاستشراق والاستغراب والاستعراب
- تاريخ الاستشراق، الدوافع والأهداف القديمة والمتجددة.
- وسائل الاستشراق.
- منافذ الاستشراق إلى عالمنا.
- موقف المشارقة من الاستشراق.

الاستشراق

مفهومه وأهمية تحديد المصطلح

لعله من المفيد والضروري أن أأكد أولاً على توضيح مصطلح الاستشراق الذي أعتقد أنه يعاني من ضبابية في الوضوح، الأمر الذي يترتب عليه إشكالية المقصود قبل البدء في الحديث عن تفاصيله الأخرى، ولذلك رأيت من الضروري جداً أن أبدأ بهذه النقطة ألا وهي تحديد مفهوم الاستشراق لأدخل بعد ذلك في معالجة هذا الموضوع برؤية واضحة وبمقصود لا يستدعي الحيرة أو التساؤل.

ولكن قبل ذلك وددت أن أنبه إلى ضرورة الاهتمام بالمصطلحات عموماً والتركيز على استخداماتها العلمية المعاصرة، تلك القضية التي كانت من أولويات البحث العلمي في تراثنا الإسلامي، فالباحث في كتب التراث أياً كان موضوعها سوف يجد أنها تبدأ بالتعريف بالحد أو بالرسم، أو غير ذلك مما هو معروف في علم المنطق الذي تختص بعض مباحثه بوضع شروط ومعايير للتعريف العلمي، وقد يتوسعون في التعريف كثيراً وذلك حسب أهمية المصطلح واتساع معانيه، غير أن السمة العامة لمؤلفاتنا التراثية هي عدم الخوض في الموضوع قبل تحديد مصطلحاته وهي ميزة لها ما يبررها فالوضوح من سمات المنهجية العلمية السليمة والدقة في استخدام العبارات

والألفاظ عامل من عوامل الاستيعاب العلمي فمن وضحت معانيه قل تساؤل الناس عن مقصوده وسهل عليهم تقويمه وتقدير قيمته العلمية.

وقد يكون التلاعب بالمعاني والمصطلحات مقصوداً ومبيتاً كما هو الحال عند الكثير من الغربيين الدارسين للإسلام والمتعاملين مع قضايا الفكر الإسلامي، فهؤلاء لهم من الاستخدامات الخبيثة للمصطلحات ما يجعلنا نقف هذه الوقفة الأولية لنبين خطورة استخدام المصطلحات في عالمنا المعاصر. فمن استخداماتهم مثلاً: مصطلح الإسلام الذي يستعملونه في أحاديثهم عن المسلمين، فنقرأ أحياناً موضوعاً أو كتاباً بعنوان [الإسلام في الولايات المتحدة] أو [الإسلام في مصر] إلى غير ذلك من العناوين المشابهة، والمفترض علمياً أن الحديث عن الإسلام واضح وواحد في كل هذه المواضيع، ذلك أن الإسلام ثابت لا يتغير مهما اختلفت بيئته التي انتشر فيها، فهو يستند إلى أصل ثابت هو القرآن الكريم، ولكننا حين نقرأ هذه المواضيع سوف نجد أن الحديث يدور فيها حول المسلمين في تلك البيئة المسماة، وشتان ما بين الحديث عن الإسلام والحديث عن المسلمين. وهل يمثل المسلمون الإسلام؟ خاصة في هذا العصر.

إن هذا الاستخدام غير العلمي لمصطلح الإسلام يقصد به تقديم الإسلام من خلال سلوكيات المسلمين، ليتم تنفير الناس وإبعادهم عنه، ونمر ـ نحن المثقفين ـ على هذه الاستعمالات ولا نعيرها اهتماماً، بل نساهم أحياناً في نشرها وإذاعتها دون دراية بخطورتها وخطورة ما يترتب على اختلاط المفاهيم وغموض المصطلحات.

ومن الاستخدامات السيئة للمصطلحات ما يعبر عنه الغربيون بـ(MOHAMADANISM) [1] ويترجمها مفكرونا، بل يستعملونها أحياناً تحت

---

(1) للمستشرق H. a. R GIBB كتاب بهذا العنوان صدر عن ـ London oxford press، وفيه يتحدث عن القرآن ومحمد والشريعة والصوفية والإسلام في العصر الحديث.

عنوان المحمدية، ويقصدون بها الدين الإسلامي، وأحياناً يقولون: الدين المحمدي، والذي يجب التنبيه إليه أن اللاصقة (ISM) تعني في اللغة الإنجليزية المذهب أو الحركة، وإضافتها إلى الإسلام تعطيه صفة المذهب وهكذا يقال: (قومية) (اشتراكية) (علمانية)، فإذا سرنا على هذا المنوال وأضفنا هذه اللاصقة إلى اسم النبي ﷺ فإن النتيجة ستكون أن الإسلام هو مذهب ينسب إلى شخص اسمه محمد وليست له صلة بتنزيل أو وحي، وهذه لعمري مكمن الخطورة في هذا الاستخدام وهو أساس التعبير الذي يقصده الغربيون من هذا الاستعمال، والذي ينجر وراءه الباحثون المسلمون دونما انتباه وبحسن نية.

من كل ما تقدم نستنتج أن تحديد المصطلحات خاصة في زماننا هذا يمثل أهمية قصوى لوضوح المعاني، بحيث لا يصار إلى التلاعب بها والتركيز عليها لتسريب مفاهيم خاطئة من خلال استخداماتها السيئة، وهو مطلب من صميم المنهجية العلمية السليمة التي سار عليها أسلافنا وأسسوا من خلالها تراثاً فكرياً عظيماً لا زال العالم يعيش على آثاره.

مصطلح (الاستشراق) المفهوم

يختلف الباحثون كثيراً في المراد من مصطلح الاستشراق، وتعاريفهم له تأخذ اتجاهات متعددة تبعاً لموقفهم منه، فبينما يرى البعض أنه ميدان علمي من ميادين الدراسة والبحث، يتجه آخرون إلى اعتباره مؤسسة غربية ذات أهداف متعددة، في حين يرى بعض الباحثين أنه ظاهرة طبيعية تولدت عن حركة الصراع بين الشرق والغرب، أو، في فهم أضيق نطاقاً، بين الإسلام والمسيحية، وباستعراض لبعض هذه التعريفات يمكن أن نتبين هذه الاتجاهات التي ينتهجها الباحثون في النظرة إلى مفهوم الاستشراق:

1 ـ الاستشراق هو علم العالم الشرقي، وهو ذو معنيين: عام يطلق على

كل غربي يشتغل بدراسة الشرق كله؛ أقصاه ووسطه وأدناه، في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه، ومعنى خاص وهو الدراسة الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وتاريخه وعقائده[1].

2 ـ الاستشراق هو المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق بإصدار تقريرات حوله وبوصفه وتدريسه والاستقرار فيه وحكمه، وهو بإيجاز أسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه وامتلاك السيادة عليه[2].

3 ـ الاستشراق هو الجمع بين الانقطاع إلى درس بعض أنحاء الشرق وبين الوقوف على القوة الروحية والأدبية الكبيرة التي أثرت في تكوين الثقافة الإنسانية، وهو أيضاً تعاطي الحضارات القديمة، أو هو تقدير شأن العوامل المختلفة في تكوين التمدن في القرون الوسطى[3].

4 ـ الاستشراق أسلوب غربي لفهم الشرق والسيطرة عليه ومحاولة إعادة توجيهه والتحكم فيه[4].

5 ـ المستشرقون هم أولئك الأساتذة والباحثون الأكاديميون الذين تخصصوا في دراسة اللغة العربية والحضارة العربية وبقضايا العالم العربي وبالدين الإسلامي[5].

6 ـ المستشرقون اصطلاح يشمل طوائف متعددة تعمل في ميادين الدراسات الشرقية فهم يدرسون العلوم والفنون والآداب والديانات والتاريخ وكل

---

(1) د. محمود زقزوق/ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري/ كتاب الأمة/ قطر العدد الخامس.

(2) إدوارد سعيد/ الاستشراق/ ترجمة كمال أبو ديب/ مؤسسة الأبحاث، ص39.

(3) من محاضرة ألقاها المستشرق ميكائيل أنجلو جويدي في الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة تحت عنوان (علم الشرق وتاريخ العمران) نشرتها مجلة الزهراء في عددها الصادر في ربيع الأول 1347.

(4) د. شكري النجار/ لِمَ الاهتمام بالاستشراق/ مجلة الفكر العربي/ العدد31/ 1983م، ص71.

(5) د. ميشال جحا/ الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا/ معهد الإنماء العربي/ 82/ ط1.

ما يخص شعوب الشرق؛ مثل الهند وفارس والصين واليابان، والعالم العربي وغيرهم من أمم الشرق[1].

7 ـ إننا نعني بالمستشرقين الكتّاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية[2].

هذه فقط نماذج لرؤى بعض الباحثين لمفهوم الاستشراق وهي في مجملها تخصص المصطلح للدلالة على علاقة ما بين الشرق والغرب، ومعظم التعاريف لم تخرج بالعلاقة هذه عن إطار التعرف أو التسلط، الاستشراق إذاً هو محاولة التعرف على الشرق في إطار عام يتناول شرقاً واسعاً لا تحده الديانات أو القوميات، أو في إطار خاص يكون الإسلام محوره والعروبة أداته، ويمكن أن يكون الاستشراق وسيلة أيضاً من وسائل السيطرة والتحكم في الشرق، وهي نظرة تأثرت إلى حد كبير بمجريات الأحداث العالمية في فترة ما بعد القرن التاسع عشر، وهي فترة ازدهار الاستشراق لا بداياته.

ومهما يكن من أمر فإن تحديد المصطلح ينبغي أن يمر بفهم لغوي تحدده الألف والسين والتاء التي هي حروف تدل في مجموعها على الطلب، ومن ثَمّ فإن الاستشراق هو طلب الشرق. وتحت هذا المعنى تدخل مفاهيم عديدة فزيارة الشرق أو الاهتمام به أو الكتابة عنه أو القراءة حوله أو التخصص فيه أو استعماره كلها تسمى استشراقاً، ولكن المعنى اللغوي عادة لا يسعف بتحديد المعاني نظراً لاتساعه وشموله لمعاني متعددة، ولذلك وانطلاقاً من المعنى اللغوي ذاته فإننا محتاجون إلى فهم مصطلح الشرق محور القضية.

وأول ما يتبادر إلى الذهن هو المعنى الجغرافي للكلمة، وهو غير مراد

---

(1) د. عفاف صبرة/ المستشرقون ومشكلات الحضارة/ دار النهضة العربية/ القاهرة 1980م، ص9.

(2) مالك بن نبي/ إنتاج المستشرقين/ دار الإرشاد/ بيروت.

على الإطلاق، لأن تحديد الشرق جغرافياً يختلف من جهة إلى أخرى تبعاً للجهة المحدد منها، فالشرق بالنسبة للألماني هو غير الشرق بالنسبة لليباباني وهكذا[1].

ولذا يجب النظر إلى هذه الكلمة من زاوية تاريخيه أساسها أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يخضع العالم إلى سيطرة قوتين كبيرتين تحققان التوازن، إحداهما في الشرق والأخرى في الغرب، تمثل ذلك في الصراع بين الفرس والروم، ثم بين المسلمين والروم ثم بين المسلمين والصليبيين، ثم بين العثمانيين والأوروبيين، ثم كان آخر فصول هذه الملحمة الصلات بين الشرق ممثلاً في آسيا وأفريقيا وبين الغرب ممثلاً في أوروبا وأمريكا[2].

وهكذا يمكن أن نقف على مدلول أولي لمصطلح الاستشراق، فهو: طلب الشرق/ الذي هو آسيا وأفريقيا/ من قبل الغرب الذي هو أوروبا وأمريكا/ ولكن ما نوعية هذا الطلب؟

فالذي رأى الاستشراق من زاوية معرفية قال: إن الاستشراق هو معرفة الغربيين بالعالم الشرقي، أو هو اتجاه الغربيين للبحث أو التخصص في الشرق، ومن رآه من زاوية سياسية قال إن الاستشراق هو جهود الغربيين لمعرفة الشرق والسيطرة عليه، أو هو الأسلوب الغربي للسيطرة على الشرق.

وأخيراً فإني أعتقد أن إنتاج المستشرقين هو الذي يساعد في إدراك مصطلح الاستشراق، فمن المعروف أن المستشرقين قد ركزوا أبحاثهم واهتماماتهم حول قضية معينة من قضايا الشرق وهي الإسلام والعروبة.

ومن هنا رأى بعض الباحثين أن الاستشراق له مفهومان أحدهما عام

---

(1) رودي بارت/ الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية/ ترجمة مصطفى ماهر/ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1967م.

(2) محمد محمد حسين/ الإسلام والحضارة الغربية/ ط1/ دار الإرشاد/ بيروت 49م.

ويقصد به كل الدراسات الغربية التي تعرضت لحضارة العرب والمسلمين، وخاصة تلك التي اتصفت بالدس والتشويه، ومفهوم خاص أو أكاديمي وهو الدراسات الغربية التي تناولت الشرق من جميع جوانبه الدينية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية[1].

ونظراً للطابع العدائي الذي سارت عليه أبحاث المستشرقين وكتاباتهم التي تناولت الإسلام وحضارته وتراثه، ونظراً لما نال الفكر الإسلامي من تشويه وتزييف للكثير من المفاهيم التي كان الاستشراق أحد أسبابها الرئيسية، فإن مصطلح الاستشراق والمستشرقين صار يمثل حساسية كبيرة عند كل من له غيرة على دينه وتراثه وأمته، ومن هذا الجانب صار الإقبال على هذه الدراسات نوعاً من الحضور الذي يجب الاحتراس منه خاصة لأنصاف المتعلمين، كما أن انتشار الصحوة الإسلامية المعاصرة في معظم بقاع الأرض، وإقبال الشباب على تعلم العلوم الدينية والانفتاح على الثقافة الإسلامية الصحيحة، ساهم بشكل كبير في تنبيه المسلمين إلى خطورة الإقبال على مؤلفات المستشرقين ودراساتهم المشوهة للإسلام، ومن كل ذلك فقد الاستشراق والمستشرقون مكانتهم في عالمنا الإسلامي المعاصر وأصبح ذكر هذا المصطلح يمثل نفوراً شديداً فقد معه المستشرق مهمته التي أسندت إليه، ولذلك فإن هذه القضية ساهمت في دفع الغربيين إلى سحب مصطلح الاستشراق والمستشرق من استعمالاتهم وإدخال مصطلح آخر بديل يختلف عنه شكلاً ويتفق معه مضموناً وذلك للهروب من هذه الحساسية، وهذا المصطلح الجديد هو (خبير الشرق الأوسط) الذي هو مرادف للفظ (مستشرق) و(الدراسات الشرق أوسطية) التي هي مرادفة للفظ (استشراق).

وهكذا أصبح استخدام المصطلح الجديد شائعاً منذ النصف الثاني من

---

(1) محمد فتح الله الزيادي/ ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها/ المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان/ ط1 أكتوبر 1983.

القرن العشرين، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية التي تنتشر فيها العديد من مراكز إعداد هؤلاء الخبراء في مختلف المجالات[1].

هذا وتشير المصادر إلى أن أول استعمال لكلمة مستشرق كان سنة 1630م. حين أطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية، ثم في سنة 1690م وصف صمويل كلارك[2] بأنه استشراقي نابه حين عرف بعض اللغات الشرقية[3].

ثم دخلت هذه الكلمة إلى القاموس الإنجليزي سنة 1779م. ثم إلى معجم الأكاديمية الفرنسية سنة 1838م[4].

الاستغراب والمستغرب:

من البديهي جداً أن يتساءل الإنسان إذا كان هناك استشراق، فهل هناك استغراب بالمقابل وما معناه؟ وللإجابة عن ذلك نقول: إن الاستغراب يجب أن يتضمن معنى مقابلاً للاستشراق تماماً، فهو إذاً اتجاه الشرقيين لدراسة الغرب، أو هو تخصص الشرقيين في لغات الغرب وعلومه ومعارفه، وعلى أساس ذلك فإن المستغرب هو كل شرقي تخصص في علم من علوم الغرب.

أما من حيث وجود الاستغراب كظاهرة واقعية توازي ظاهرة الاستشراق فهو ما لم تشهده مسيرة الحياة الفكرية في الشرق حتى الآن، ولذلك تمنى بعض الباحثين ذلك حين قال:

---

(1) إدوارد سعيد/ تغطية الإسلام/ تر. سميرة خوري/ مؤسسة الأبحاث العربية/ بيروت 1983م. ص49 وما بعدها.

(2) صمؤيل كلارك (CLARKE, S) مستشرق إنجليزي ولد سنة 1625، وتوفي سنة 1669، تخرج في جامعة أكسفورد، وعين مديراً لمطبعتها، خلف عدداً محدوداً من الأعمال من أهمها معجم الأماكن ذات الأسماء العربية. انظر العقيقي/ المستشرقون ج2 ص/ 466.

(3) أربري/ المستشرقون البريطانيون/ تر. د. محمد النويهي/ لندن/ 1946م. ص8.

(4) د. أحمد سمايلوفتش/ فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار المعارف/ مصر/ نقلاً عن رودنسون/ صورة العالم الإسلامي في أوروبا.

(وددت لو استغربنا كما استشرقوا، وودت لو تتبعنا آثارهم واختراعاتم الفائقة الوصف ونقلناها إلى اللغة العربية ولم نكتف بدراستها في لغاتهم، فلو فعلنا ذلك لأغنينا اللغة العربية وأمددنا النشء الجديد بكل أنواع الثقافات الحديثة مع التبحر في العلوم والفنون)[1].

وإذا كنا ننفي وجود الاستغراب فإننا قصدنا الاستغراب بالمعنى الإيجابي الموازي للاستشراق، أما الاستغراب بالمعنى السلبي الذي هو أثر من آثار الاستشراق فهو ما لا يستطيع أحد إنكاره؛ ذلك أن الشرقيين سرى في نفوسهم مُرَكّب النقص الذي سول لهم تفوق الغربيين وعلو مكانتهم فاندفعوا يقلدونهم في مظاهر العيش والسلوك، أي في هوامش الحياة وتوافهها، فاللباس والأكل والشرب والعادات والتقاليد الغربية كل ذلك سرى إلى سلوكنا اليومي ليحولنا / شئنا أو أبينا/ إلى الانجراف في تقليد أعمى لكل ما هو غربي مما لا قيمة له في حياتنا، وليبعدنا بالتالي عن التفكير في كل ما يوجهنا نحو الابداع والخلق والابتكار كما فعلوا هم حين تعاملوا مع ثقافتنا وتراثنا.

الاستعراب والمستعرب:

الاستعراب فرع من فروع الاستشراق ظهر أخيراً حين تخصص بعض الباحثين الغربيين في دراسة القضايا العربية دون غيرها، وقد يتسع هذا المصطلح ليشمل كل باحث غير عربي تخصص في دراسة العربية وما يتعلق بها من علوم ومعارف ولو كان شرقياً. فالياباني مثلاً قد يكون مستعرباً ولكنه لا يمكن أن يعد مستشرقاً؛ لأنه شرقي بحكم البيئة، إلا على التعريف العام الذي يعتبر الدين أساساً في الموضوع، وهكذا يمكن أن تقاس بقية الأمثلة.

والاستعراب مرحلة عرفت قديماً في أوروبا زمن ازدهار الحضارة

---

(1) المرجع السابق نفسه. / ص35.

العربية في الأندلس وبالتحديد في الفترة من / 1100 إلى 1500/ ، وقد عرفت تاريخيًا بعصر (الاستعراب الأوروبي)، وتمثلت معالم هذا العصر في إقبال الأوروبيين على تعلم العربية وآدابها، والولوع بكل ما هو عربي، حتى إن أحد مسيحيي قرطبة سجل ذلك بقوله: (إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً، وأين تجد الآن واحداً من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل، يا للمسرة إن الموهوبين من شباب النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها، ويقبلون عليها في نهم، وهم ينفقون أموالاً طائلة في جمع كتبها، ويصرحون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب، فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم، يا للألم لقد أنسى النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الآلاف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتاباً سليماً من الخطأ، فأما عن الكتابة في لغة العرب فإنك واجد فيهم عدداً عظيماً يجيدونها في أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالاً[1].

تلك هي دورة الزمان، لقد كان استعراباً وأصبح استغراباً والنص تعمدت إيراده كاملاً، على الرغم من طوله، لأنه يمكن أن ينطبق تماماً على الكثير من مثقفينا الذين يقرأون المجلدات بلغات أجنبية، بينما لا يستطيعون أن يقرأوا صفحة واحدة سليمة من الخطأ في لغتهم.

(1) د. أحمد سمايلوفتش/ فلسفة الاستشراق/ ص67.

ونذكر في الختام من المستعربين أمثال: الإيطالي أمبيرتو ريزيتانو[1] أستاذ اللغة والأدب العربي في جامعة باليرمو. والإسباني أميليو غارسيا غومث المراسل في مجامع اللغة العربية في القاهرة وبغداد ودمشق[2].

والألماني: فيشر المتخصص في اللغة العربية وفي اللهجات العربية المحكية[3]، وغيرهم كثير.

تـــاريخ الاســـتشراق

لا يمكن التعرف بدقة إلى البداية الحقيقية والمنظمة للاستشراق، ذلك لأنه حركة نشأت بجهود عفوية ثم ما لبثت أن تطورت لتكون حركة منظمة لها

---

(1) أمبيرتو ريزيتانو Rizzitano Umberto مستعرب تعلم العربية في مصر وإيطاليا، وعمل أستاذاً بجامعة عين شمس، ثم أستاذاً بجامعة باليرمو، كتب العديد من الأبحاث حول الثقافة العربية، وخلف الكثير من الآثار التي نذكر منها: كتاب قواعد الإيطالية مشروحة باللهجة العربية/ كتاب تثقيف اللسان ووضع مسرد واف بما ألف من كتب في لحن العامة/ وبتكليف من وزارة التعليم العالي الإيطالية ترجم الأدب العربي الحديث. انظر ترجمته كاملة في: العقيقي (المستشرقون) ج1/ ص401.

(2) أميليو غارسيا غومث Garcia. Gomez. E ولد في مدريد سنة 1905 وتخرج هناك سنة 1926 وتولى مناصب عديدة منها: أستاذاً بجامعة غرناطة وجامعة مدريد، ومديراً لمدرسة الدراسات العربية العليا بمدريد، وانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق ورئيساً للجنة الاستشارية لثقافات الشرق والغرب، يعتبر من أشهر المستعربين الإسبان، وذلك لما خلفه من آثار كثيرة نذكر منها: رسالتاه للدكتوراه/ مصدر مشترك لابن طفيل وجرائيان/ ونص عربي من أسطورة الإسكندر، وله كتاب الإشارة بمحاسن الأندلسيين، ترجم أعمالاً عربية كثيرة إلى الإسبانية لطه حسين وتوفيق الحكيم. الخ. . . نشر وترجم الكثير من الأعمال المهمة صحبة المستشرق الشهير ليفي بروفنسال. انظر ترجمته كاملة في: (المستشرقون) ج2/ ص610/ 611.

(3) فيشر Fischer. Aug ولد سنة 1865 تخصص باللغات الشرقية وبالأخص اللغة العربية، تخرج على يديه بعض من كبار المستشرقين من أمثال برجستراسر، شادة، جراف، انتخب عضواً في المجمع العلمي بدمشق والمجمع اللغوي بمصر، خلف عدداً كبيراً من الأبحاث والدراسات نذكر منها: مخارج الأصوات في اللهجات العربية، ومعجم اللغة العربية القديمة مرتباً على المصادر، الذي قضى في جمعه وترتيبه ما يقرب من أربعين سنة. نشر العديد من المخطوطات العربية في علوم شتى. انظر ترجمته كاملة في: (المستشرقون) ج/ ص770.

كوادرها ومؤسساتها المختلفة، والباحثون يختلفون كثيراً في تحديد تاريخ معين لظهور الاستشراق تبعاً لاختلافهم في المراد منه، أهو مجرد زيارة الشرق؟ أم هو الكتابة حوله؟ خاصة تلك الكتابات الوصفية الأولية، أم هو التعمق في الدراسات المتعلقة بالشرق لأي غرض كانت هذه الدراسة؟ وهكذا ونتيجة لاختلاف المراد من الاستشراق توسع بعض الباحثين في نشأته، فرده بعضهم إلى فترة ما قبل الميلاد، وتطرف آخرون ليردوا نشأته إلى حملة نابليون على مصر متناسين كل ما سبقها من جهود غربية لفهم الشرق والتعرف عليه.

هذا ويمكن حصر آراء الباحثين في تاريخ الاستشراق في النقاط التالية:

1 - يرجع بعض الباحثين نشأة الاستشراق إلى أواخر القرن السابع الميلادي، ويستندون في ذلك إلى كتابات بعض المسيحيين عن الإسلام أمثال يوحنا الدمشقي[1]، ولا شك في أن هذا الرأي ربما يتوافق مع المفهوم العام للاستشراق لا المفهوم الأكاديمي له.

2 - ويرى الكثرة من الباحثين أنه نشأ في القرن العاشر الميلادي حين بدأت التلمذة الغربية على الشرق التي كان رائدها الراهب جربرت، الذي تعلم العربية في قرطبة ثم عاد إلى بلاده ليتولى البابوية تحت اسم سلفستر الثاني[2].

3 - وهناك من يقول: إن الاستشراق، نشأ في القرن الثاني عشر، ويستدل على ذلك بظهور أول نتاج استشراقي تمثل في أول ترجمة لمعاني القرآن، وكذلك ظهور أول قاموس لاتيني عربي.

---

(1) هو حفيد منصور بن سرجون وزير معاوية بن أبي سفيان عاش ما بين 676م و749م.

(2) فرنسي انتخب في 2/ 4/ 999م بابا كنيسة روما الكاثوليكية، ذهب إلى الأندلس لإكمال دراسته وهناك تعلم الكثير من العلوم التقنية الإسلامية، يعزى إليه إدخال الأرقام العربية والساعة ذات الميزان إلى فرنسا، وله الفضل في تشجيع نفوذ العلوم العربية في العالم الأوروبي كما أن له الفضل في تنشيط الترجمة من العربية إلى اللاتينية، للمزيد يرجع إلى ترجمته في موسوعة المستشرقين، د. عبد الرحمن البدوي/ دار العلم للملايين/ بيروت/ ط1/ 1984م. ص107.

4 ـ كما أن هناك من الباحثين من يرى أن الاستشراق يعتبر نتيجة من نتائج الحروب الصليبية، ذلك أن هذه الحروب كانت آخر مراحل الصراع الديني المسلح بين المسلمين والمسيحيين، وأن هؤلاء ربما اقتنعوا بأنه لا يمكن الانتصار على المسلمين عسكرياً وهم متمسكون بدينهم، ولكي يتم قهرهم والسيطرة عليهم يجب الفصل بينهم وبين دينهم عن طريق ما عُرف فيما بعد بالغزو الفكري الذي كان الاستشراق أحد أهم مظاهره، ونتيجة لهذه القناعة تولت الكنيسة هذا العمل وقامت برعاية كل الجهود الرامية إلى تعلم العربية وفهم الدين الإسلامي، وهي الجهود التي تطورت بعد ذلك لتكون حركة الاستشراق.

5 ـ وأخيراً فإن بعض الباحثين يرجع نشأة الاستشراق إلى القرن الثامن عشر، متخذاً من حملة نابليون على مصر نقطة انطلاق الحركة الاستشراقية. وعلى الرغم من أن هذه الحملة عسكرية إلا أن اصطحاب نابليون معه مطبعة وعدداً من العلماء والباحثين هو الذي دفع إلى القول بأنها بداية الاستشراق.

هذا ومن خلال تتبع مثل هذه الآراء واجتهادي الشخصي حاولت في دراسة سابقة تقسيم تاريخ الاستشراق إلى مراحل أربع هي:

أولاً: مرحلة الانبهار بالحضارة العربية والاتجاه إليها:

هناك اتجاه كبير يميل إلى أن الاستشراق بدأ منذ أن دقت جيوش الفتح الإسلامي أبواب أوروبا، وقيام الدولة الإسلامية في الأندلس، التي أسست نهضة وحضارة إسلامية لم تشهدها أوروبا من قبل. وحينذاك أخذ الأوروبيون الغارقون في الجهل والتخلف الحضاري يبحثون عن أسباب نهضة المسلمين وبلوغهم هذا المجد العظيم، فبدأوا يدرسون علوم المسلمين ولغاتهم لعلهم يظفرون بما يوقفون به هذا التيار الجديد، أو يكتسبون من علومه ما ينفعهم

في إنقاذهم من تخلفهم وجهلهم، ويؤكد بعض الباحثين أن بعض الرهبان اتجهوا إلى الأندلس وغيرها من مراكز الحضارة الإسلامية في أوروبا في أيام ازدهارها، وتعلموا في مدارسها، وتثقفوا بعلوم المسلمين وثقافتهم، وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم، وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات، واستطاعوا أن يترجموا بعض الكتب العربية إلى لغاتهم، وكان من طلائع هؤلاء (جربرت) و(بطرس المحترم)[1].

وإلى جانب هذا الاتجاه الفردي إلى مراكز الحضارة العربية كان هناك اتجاه جماعي تمثل في بعثات طلابية فرنسية وإنجليزية وغيرها ضمت أعداداً وفيرة من طلاب العلم والمعرفة.

ولم تكن البعثات العلمية الوحيدة في نقل صورة الحضارة العربية إلى أوروبا، بل ساهمت معها تلك البعثات الدبلوماسية والسفارات التي توطدت في عهد خلفاء الأندلس، خاصة في عهد عبد الرحمن الداخل[2] والناصر[3] وغيرهما، وحملت هذه السفارات والبعثات معها مردوداً مادياً ومعنوياً كبيراً أدى إلى تعلق الغربيين بهذه الحضارة والاتجاه إليها للاستفادة منها. وترتب على تعلم بعض الغربيين اللغة العربية ظهور الرغبة الملحة لديهم في ترجمة

---

(1) هو بطرس المحترم (1092/ 1156) راهب فرنسي ترأس دير CLUNY، الذي شهد أول ترجمة لاتينية للقرآن، والذي كان لبطرس هذا دور واضح فيها، له بعض المؤلفات منها كتاب في الرد على الإسلام. للمزيد يراجع/ د. عبد الرحمن بدوي (موسوعة المستشرقين) ص68.

(2) عبد الرحمن الداخل: هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحكم الربضي بن هشام بن عبد الرحمن الداخل (277/ 350هـ، 890/ 961م). أول من تلقب بالخلافة من رجال الدولة الأموية في الأندلس. عرف بالشدة والصرامة في الحكم، صفت له الأحوال فبنى وفتح، ومن ضمن ما خلده مدينة الزهراء وقصرها الشهير. [الزركلي/ الأعلام/ ج4 ط13 ص99/ 100].

(3) عبد الرحمن الناصر: هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الأموي (368/ 408هـ، 978/ 1018م). أحد أمراء الأندلس، أقام بقرطبة، بويع ولقب بالمرتضى وكان مشهوراً بالصلاح والتقوى.

الكتب العربية، ولذلك وبدعم وتحريض من الكنيسة نقلت ثروات علمية هائلة إلى أوروبا وبدىء بترجمتها وصارت هذه أساس حركة الترجمة التي ساهمت في انبعاث الحضارة الأوروبية، وتتميز هذه المرحلة بإنشاء مكتب المترجمين سنة 1130 على يد (ريموندو الأول)[1]، الذي ساهم في نقل أمهات الكتب في مختلف العلوم، وتميزت أيضاً بظهور أول ترجمة لاتينية للقرآن سنة 1143 على يد راهب إنجليزي يدعى (هيرمان)[2].

ثانياً: مرحلة ما بعد الحروب الصليبية:

تحدثت سابقاً أن بعض الباحثين يعتبرون أن الاستشراق نتيجة من نتائج الحروب الصليبية، والسبب أن هذه الحروب أثبتت للأوروبيين أن المسلمين يتفوقون عليهم حضارياً، وأن رسوخ إيمانهم هو الذي دفعهم وساعدهم على النصر، وأن أخلاقهم الرفيعة لم تبدلها الحروب إلى حقد ضد أعدائهم كما هو الحال عند الأوروبيين الذين نقلوا هذه الصور المضيئة إلى شعوبهم، وكان هذا سبباً كافياً لزيادة روح التعصب الديني لدى قادة المسيحية وزعماء الكنيسة الذين لم يروا وجهاً للمجابهة أقوى من الاهتمام الجدي بهذه الحضارة سعياً إلى الاستفادة منها أو إلى هدمها والتأثير السلبي فيها، وكان من مظاهر الاهتمام:

1 ـ إنشاء المدارس والمعاهد العربية في كثير من البلدان الأوروبية.

2 ـ قرار مؤتمر فينا سنة 1311 بإنشاء دروس عربية وشرقية في عواصم أوروبا مثل باريس وأكسفورد وبولون، هذه الدروس التي تحولت أخيراً إلى كراسي الدراسات الشرقية في الجامعات الغربية.

3 ـ اتجاه الأديرة إلى دراسة المؤلفات المترجمة إلى اللاتينية، وتشجيع

---

(1) ريموندو الأول: لم أعثر له على ترجمة.

(2) هيرمان: لم أعثر له على ترجمة.

البحث فيها والاهتمام بها.

4 ـ دخول الكتب العربية مراجع معتمدة في الجامعات العربية.

5 ـ ازدياد تشجيع نشاط حركة الترجمة خاصة بعد ظهور الطباعة.

6 ـ الاهتمام بجمع كنوز التراث الإسلامي ونقله إلى أوروبا بكل الطرق الممكنة.

ثالثاً: مرحلة التنظيم الفعلي:

تعتبر هذه المرحلة من أهم المراحل في تاريخ الاسشتراق، ذلك أنها شهدت تحولاً خطيراً في مسيرة الاهتمام الغربي بالشرق، فبعد أن كان الاستشراق فيها في أحضان الكنيسة دفعاً ودعماً وتخطيطاً دخل الاستعمار الأوروبي بديلاً للكنيسة في رعاية جهود المستشرقين والتخطيط لها، وذلك لما رآه من حاجة ماسة إلى الدراسات الاستشراقية التي تعين في التمهيد لحركة الاستعمار الأوروبي للعالم الشرقي، وكذلك تساعد في تثبيت دعائم الاستعمار داخل الأوطان، وكان لهذا التحول أثر في ظهور الاستشراق مؤسسة غربية تستهدف المساعدة في السيطرة على الشرق، ونتيجة لذلك شهدت هذه المرحلة نشاطاً مكثفاً من قبل المستشرقين تمثلث أهم مظاهره في الآتي:

1 ـ إصدار المجلات المختلفة، في أماكن متفرقة من العالم، وبلغات متعددة، وفي مجالات متنوعة.

2 ـ عقد المؤتمرات ابتداء من سنة 1783 سواء على صعيدها العالمي أو في إطارها القطري، مثل مؤتمر المستشرقين الألمان الذي عقد سنة 1849م، وكذلك مؤتمر أكسفورد الذي ضم 900 عالم يمثلون 25 دولة و85 جامعة و69 جمعية علمية[1].

---

(1) نذير حمدان/ في الغزو الفكري/ ص258.

3 ـ أتاحت حركة الاستعمار الغربي فرصة عظيمة للمستشرقين في الحصول على جزء كبير ومهم من تراث العالم الإسلامي المتمثل في المخطوطات والوثائق التي تم نقلها إلى العالم الغربي، حيث امتلأت مكتبات الأسكوريال وليدن والمتحف البريطاني وغيرها بأنفس وأندر ما خط العقل العربي في مختلف العلوم.

4 ـ شهدت هذه المرحلة أيضاً تطوراً ملحوظاً في الدعم المادي لحركة الاستشراق مما أثر في زيادة فعاليتها وتوسع حركة نشاطها.

5 ـ من سمات هذه المرحلة أيضاً الارتباط الوثيق بين وزارات الخارجية والمستعمرات والمستشرقين حيث عملوا مستشارين لهذه الوزارات وسفراء وموفدين، والأسماء أكثر من أن تحصى في هذا المجال[1].

6 ـ شهدت هذه المرحلة أيضاً توسعاً كبيراً في حركة التأليف الاستشراقي، حيث قذفت المطابع بآلاف الكتب الاستشراقية في مختلف الميادين، وكان ذلك نتيجة فتح الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي لمجالات بحثية متنوعة لم تكن ميسرة لولاه.

رابعاً: مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية:

تعتبر هذه المرحلة امتداداً لسابقاتها، حيث استمر النشاط الاستشراقي المدعوم من قبل الدوائر السياسية الغربية في الازدياد والتوسع، حيث زادت النشاطات الصحفية توسعاً وانتشاراً، وزادت المؤلفات والمؤتمرات، وتوافرت للمستشرقين إمكانات مادية وتقنية كبيرة، وكان هذا سبباً في توسع حركة الاستشراق عددياً ومكانياً توسعاً لم يعد في الإمكان حصره.

ومما يلاحظ بصورة خاصة على هذه المرحلة ما يلي:

---

(1) انظر نجيب العقيقي/ المستشرقون.

1 ـ انخفاض الجهد الاستشراقي المبذول على مستوى الأفراد، فلم يظهر في هذه المرحلة ذلك النوع من جيل المستشرقين القدماء وخاصة الألمان منهم، حيث كان الواحد منهم يفنى عمره في تحقيق مخطوط أو في تأليف معجم أو فهرسة مصادر علم من العلوم، وشهدت هذه المرحلة بديلاً لذلك دراسات جزئية محدودة وذات طابع تخصصي دقيق.

2 ـ شهدت هذه المرحلة أيضاً تبدلاً في شكل الكتابات الاستشراقية، فالهجوم السافر على الإسلام واحتقار العروبة وغيرها من السلبيات الاستشراقية لم تعد ظاهرة كما كانت من قبل، وإنما أصبح التستر والتورية وقلب المفاهيم والاستنتاجات الخاطئة هي السمة العامة للبحوث الاستشراقية في هذه المرحلة. وهذا الأمر كان له دور في ترويج مفهوم جديد في أوساط الفكر العربي أساسه أن الاستشراق لم يعد كما كان وإنما أصبح يميل إلى العلمية والموضوعية، وتوارت من هذا الحقل الدوافع الدينية التي كانت محركة له، ولذلك فعلى الشرقيين طرح حساسياتهم القديمة تجاه المستشرقين، والإقبال على دراساتهم بروح جديدة أساسها الموضوعية والحيدة العلمية.

وكما كنا نتمنى أن يكون ذلك حقيقة واقعية تدخلنا في عصر الحوار والجدل بالحسنى والإقرار بالتبادل الحضاري، واحترام إنسانية الشعوب وعقائدها وعاداتها، ولكن النظرة العلمية لرواد هذه المرحلة هي الكفيلة بأن تبين لنا أن كل ما ردد هو باطل ولا أساس له، ومن ذلك مثلاً مؤلفات جولد زيهر[1]

(1) جولد زيهر IGNAZ GOLDZIHER (1277/ 1340هـ، 1850/ 1921) مستشرق مجري يهودي عمل أستاذاً بجامعة بودابست وتوفي بها، وأهديت مكتبته بعد وفاته إلى الجامعة العبرية في فلسطين، رحل إلى بعض البلاد العربية وتعرف على أهل العلم فيها وصحب الشيخ طاهر الجزائري، يعد رائد الدراسات الإسلامية في الغرب، وتعتبر أبحاثه ومؤلفاته مرجعاً لمعظم

وبرو كلمان[1] وبرنارد لويس[2]، وماسينيون[3] وكايتاني[4] ودوزي[5] وغيرهم كثير.

الباحثين الغربيين في ميدان الدراسات الإسلامية. خلف الكثير من الأعمال؛ منها ـ على سبيل المثال ـ كتاباه المترجمان: العقيدة والشريعة في الإسلام/ مذاهب التفسير الإسلامي، ترجم عدداً من الأعمال منها: توجيه النظر إلى علم الأثر لطاهر الجزائري، حقق بعض المخطوطات؛ منها فضائح الباطنية للغزالي. (الأعلام/ ج1 ص80).

(1) بروكلمان (1868/ 1956) Karl BROCKLMANN مستشرق ألماني كبير اهتم باللغات الشرقية وبالأخص اللغة العربية التي أبدع في لم شتات ما كتب بها عن طريق مؤلفه الشهير (تاريخ الأدب العربي) الذي يعد في مقدمة الكتب التي يسعى الباحثون لاقتنائها على الرغم من عدم اكتمال ترجمته، وكتب في اللغة السريانية، وأصدر المعجم السرياني سنة 1895، وكتب في اللغة التركية مجموعة من الكتب القيمة، وله أبحاث حول التاريخ الإسلامي من أشهرها تاريخ الشعوب الإسلامية، صنف أوتواشبيس ثبتاً بمؤلفاته اشتمل على 555 رقماً. انظر ـ عبد الرحمن بدوي/ موسوعة المستشرقين/ ص57.

(2) برنارد لويس LEWIS. B. ولد سنة 1916 تخرج في جامعتي لندن وباريس، وعين معيداً بجامعة لندن ثم أستاذاً للتاريخ بجامعة كاليفورنيا، التحق للعمل بوزارة الخارجية البريطانية وهو ما يوضح دوره السياسي. خلّف الكثير من الأبحاث يأتي في مقدمتها كتابه المعنون بـ (أصول الإسماعيليين والإسماعيلية) وأبحاثه حول تاريخ اهتمام الإنجليز بالعلوم العربية، والغرب في التاريخ الذي ترجمه الدكتوران نبيه فارس ومحمد يوسف. (انظر المستشرقون/ ج2. ص561.

(3) ماسينيون (1883/ 1962) MASSIGNON L. مستشرق فرنسي مشهور طاف العديد من البلدان العربية ودرّس في جامعاتها ونال عضوية مجامع علمية عربية كثيرة، تولى مناصب علمية كثيرة وتولى تحرير عدد من المجلات العلمية منها مجلة العالم الإسلامي، تخصص في الحلاج ويعتبر رائد الدراسات الاستشراقية في التصوف، أصدر عنه أتباعه ومريدوه كتاباً بعنوان: (منوعات ماسينيون) وصدر عنه في القاهرة كتاب آخر بعنوان: (ذكر ماسينيون). (انظر/ المستشرقون/ ج1 ص288.

(4) كايتاني (1286/ 1345هـ، (1869/1926م) LEONE CAETANI هو الأمير ليونه كايتاني المستشرق المؤرخ الإيطالي، رحل إلى الشرق كثيراً وجمع مكتبة عربية عظيمة/ أحسن سبع لغات منها العربية/ يعتبر من أشهر المستشرقين الإيطاليين، حيث ترجع شهرته إلى كتابه الشهير (حوليات الإسلام)، ترجم لعدد كبير من علماء الأندلس وأدبائها، وجمع هذه التراجم المستشرق الإسباني ريبيرا، حقق من المخطوطات كتاب: (تراجم الأمم لمسكويه). ـ انظر الأعلام/ ج2. ص118.

(5) رينهات بيترآن دوزي RINHART PIETER ANN DOZY مستشرق هولندي من أصل فرنسي، ولد وتوفي بليدن، ودرس في جامعتها قرابة ثلاثين سنة اهتم بلغات كثيرة. وتخصص في اللغة العربية، ونال عضوية مجامع عربية كثيرة من أشهر ما خلّف: (1) معجمه الذي سمي باسمه (SUPPLEMENT AUX DICTIONNAIRES ARABES) (2) تاريخ المسلمين في أسبانيا (3) =

3 ـ شهدت هذه المرحلة أيضاً دخول الصهيونية طرفاً في الاستفادة من حركة الاستشراق وتسخيرها لخدمة القضايا الصهيونية[1].

الاستشراق الدوافع والأهداف القديمة المتجددة

سؤال يتردد دائماً في أذهان الباحثين والمفكرين ممن تناولوا علاقة الشرق بالغرب وهو: ما الهدف من اهتمام الغربيين بالشرق؟ الآلاف من المستشرقين الباحثين في مختلف نواحي الحضارة العربية، عشرات اللغات المستخدمة في دراساتهم، عشرات الدول التي تخصص جزءاً مهماً من ميزانياتها لدعم مثل هذه الدراسات، المئات من المؤسسات والجامعات التي تفتح أبوابها لاحتضان ورعاية هذه الدراسات، كل ذلك يجري لدراسة حضارة غريبة عنهم، ومن هنا يزداد السؤال تشعباً، هل كل الأمم اهتمت بحضارات بعضها بنفس القدر الذي اهتم به الأوربيون بالحضارة العربية؟ أيكون اهتمام الأوربيين بالحضارة العربية في إطار الاستفادة العلمية كما استفاد العرب من حضارات من سبقهم؟ كل هذه الافتراضات قائمة في ميدان البحث العلمي، والإجابة عنها قد تكون ميسرة الآن، لأن حركة الاستشراق تجاوزت عشرة قرون، ونتاجها الفكري طوال هذه الفترة قد يكون كافياً لبناء حكم حول طبيعة وأهداف هذه الحركة، ولذلك خاض الباحثون كثيراً في تحديد هذه الأهداف، ولكنهم ظلوا مشدودين إلى مؤثرات نفسية جعلت محاولة تحديد أهداف الاستشراق أمراً جدلياً قائماً على تصورات ذاتية، فمن وقع تحت

= الألفاظ الأسبانية والبرتغالية المنحدرة من أصول عربية. إلى غير ذلك من الآثار العلمية الشهيرة. (الأعلام/ ج3/ ص68).

(1) انظر في كل ما تقدم (ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منها/ محمد فتح الله الزيادي/ المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان/ طرابلس.

سيطرة التأثيرات الدينية والعرقية والتاريخية لم ير للاستشراق هدفاً غير الحقد الديني والكراهية العنصرية والنزعة الاستعمارية، ومن وقع تحت تأثير التقدم التقني والمادي ولم يتمكن منه الشعور الديني أو القومي لم ير للاستشراق هدفاً غير العلمية والموضوعية والمنهجية، ولسنا نعدم أمثلة لهؤلاء أو أولئك، ولكن المقام لا يستدعي الإفاضة والتوسع في ذكر الأسماء.

ومن خلال ما تقدم أستطيع القول واثقاً أن حركة الاستشراق ذات أهداف متعددة ذكرها الباحثون في كتب ومقالات متعددة ويمكن إجمالها في هدفين رئيسين هما:

(هدف بنائي/ وهدف هدمي)

الأول:

يتمثل في إقبال المستشرقين على التراث الإسلامي جمعاً ودراسة وتحقيقاً ونشراً وترجمة بقصد الاستفادة العلمية من علوم ومعارف الأمة العربية التي وصلت أعلى سلم التقدم العلمي عند قيام حركة الاستشراق، وما أشرت إليه من تحرك البعثات العلمية إلى الأندلس كان بداية لتلك الحركة التي كانت الأساس لقيام النهضة الأوروبية الحديثة، ولم تكن هذه الاستفادة في جوانب مادية فقط، وإنما شملت أيضاً جوانب عقدية تمثلت في محاولة التعرف الدقيق على العقيدة التي كانت سبباً وراء قيام هذه الحضارة، ولذلك تخصص عدد كبير من الأوروبيين في دراسة القرآن من جميع جوانبه، وفي السنة النبوية والفقه والتاريخ الإسلامي وغيرها من المجالات، ولكن استفادتهم وقفت عند الحد المعرفي ولم تتجاوزه إلى الجانب العلمي التطبيقي.

الثاني:

وهو الذي عبرت عنه بالهدف الهدمي، أي الذي يراد به هدم أواصر

الترابط بين إنسان هذه الحضارة وبين عقيدته، وذلك من أجل ألا تتجدد هذه الحضارة التي أريد لها الاندثار، ليخلو المجال لحضارة الغرب المادية، وتحقيقاً لهذا تتابعت الدراسات غير العلمية التي قدمت التراث الإسلامي في شكل مشوه اعتمد على الحذف والتغيير وسوء الاستنتاج، وتفسير الوقائع على غير حقيقتها وحتى على الكذب والتزوير المتعمد أحياناً.

وصاحب ذلك هدم من نوع آخر تمثل في مساعدة الدول الاستعمارية على تدمير العالم الإسلامي سواء كان ذلك بالتمهيد لحركة الاستدمار العالمي أو تجذيرها وتوطينها، وتعترف الدوائر الغربية بدور المستشرقين الإيجابي في المساعدة على احتلال العالم الإسلامي، أو حتى دول العالم الثالث عموماً، ومما له علاقة بجانب الهدم أيضاً ما قام به المستشرقون من خدمات كبيرة ساهمت في تنشيط العمل التنصيري والرفع من مستوى أدائه، فالاستشراق كان ولا يزال الهيئة الاستشارية لحركة التنصير، منه تستمد معارفها وعلومها، وبه تستعين على تقويم أعمالها وتوجيه برامجها وخططها.

وإذا كانت هذه هي الأهداف الرئيسة لحركة الاستشراق، فما هي يا ترى المنشطات أو محركات هذه الحركة؟ لقد أجاب كثير من الباحثين عن هذا السؤال، ويمكن من خلال تتبع لدراسات متعددة أن نجمل الدوافع في الآتي:

(1) الدافع الديني:

يتمثل هذا الدافع في مجموعة عوامل ساهمت في ظهور حركة الاستشراق وفي تطورها، وهذه العوامل هي:

أ ـ أن جميع الباحثين يتفقون على أن بداية الاستشراق كانت من الكنيسة التي لعبت دوراً رئيسياً في توجيه الأنظار والاهتمام بعامل التفوق الشرقي على الأوروبيين، فعن طريق تقويم الفشل الذريع للحروب

الصليبية تم التحول بالكنيسة إلى الغزو الفكري الذي كان المستشرقون رواده والكنيسة مؤسسته.

ب- أن الرواد لحركة الاستشراق كانوا رهباناً وقساوسة ولم تكن أعمالهم العلمية أبداً بمعزل عن دورهم الكنسي، ومن هؤلاء مثلاً: سلفستر الثاني الذي توفي سنة 1003م، والذي وصل إلى التربع على عرش البابوية، وبطرس المحترم الذي توفي سنة 1156م، والذي تولى رئاسة مجموعة أديرة منها دير (كلوني) الشهير الذي شهد اختفاء أول ترجمة لاتينية لمعاني القرآن الكريم، وبسكوال[1] المتوفى 1300 الذي أوفد من قبل البابا في سفارات إلى العالم الإسلامي، ومن خلال هذه السفارات جاءت دراساته وأبحاثه، ويوحنا الأشقوبي[2] المتوفى سنة 1456م، وأدوارد بوكوك[3] المتوفى سنة 1691 الذي شغل منصب قسيس الطائفة الإنجليزية في حلب.

---

(1) بسكوال: (PETRUS PASCUAL) قسيس إسباني ولد في بلنسية سنة 1227، تولى عدداً من المناصب الكنسية حتى أسره المسلمون في غرناطة وقضى بقية حياته في السجن إلى أن توفي سنة 1300، خلّف عدداً من الأعمال أهمها: في الفرقة المحمدية/ ضد الجبرية المسلمين. انظر د. عبد الرحمن بدوي (موسوعة المستشرقين). ص67.

(2) يوحنا الأشقوبي: JUAN ALFONSI DE SEGOBI مستشرق إسباني ذو اتجاهات لاهوتية، كان له دور في مجمع بازل الكنسي، سمي كردينالاً سنة 1440 ثم اعتزل بعد ذلك، وفي عزلته اقتنع بأنه لا يمكن التغلب على المسلمين عسكرياً، ولذلك فكر في مهاجمة الإسلام فكرياً، حاول صحبة أحد العرب أن يترجم القرآن الكريم إلى اللاتينية، ولكن هذه الترجمة ضاعت مثلما ضاعت بعض آثاره الأخرى التي يأتي في مقدمتها كتابه (طعن المسلمين بسيف الروح). للمزيد/ انظر (د. عبد الرحمن بدوي/ موسوعة المستشرقين). ص26.

(3) إدوارد بوكوك .POCOFKE E قسيس إنجليزي ولد سنة 1691 وعمل قسيساً للطائفة الإنجليزية بحلب وبها أتقن العربية، وانتقل منها إلى التدريس بجامعة أكسفورد، اشتغل ببعض الأعمال المتعلقة بالتنصير، واهتم بجمع وتحقيق المخطوطات، ومن ضمن ما حققه لامية العجم للطغرائي، ومن ضمن ما اشتهر به عمله الكبير (لمع من أخبار العرب). انظر: د. عبد الرحمن بدوي (موسوعة المستشرقين). ص90/ 92.

ج ـ المؤسسات الثقافية الاستشراقية كانت في معظمها مؤسسات كنسية ومن ذلك مثلاً:

1 ـ معهد تعليم اللغات الشرقية بفرنسا أنشأه البابا هونوريوس الرابع سنة 1285.

2 ـ السوربون بدأت بهبة من الأب روبردي سوربون كاهن القديس لويس، ثم جدد الكردينال ريشيليو بناءها سنة 1626م.

3 ـ مراكز اللغات الشرقية في روما نشأت بتكليف من مجمع نشر الإيمان الرهبنات.

4 ـ إن معظم نتاج المستشرقين تركز حول أساسيات العقيدة الإسلامية، فالقرآن والرسول ﷺ والسنة والفقه الإسلامي مواضيع أخذت الكثير من وقت واهتمام الدوائر الاستشراقية، وكان تناولهم لها قديماً وحديثاً بصورة تعتمد الشك والافتراضات الخاطئة والنتائج المسبقة، ومن هنا يبرز بوضوح سيطرة الدافع الديني على أبحاث الاستشراق ودراساته وليس هذا من قبيل التحامل على المستشرقين وإنما أخذت هذه الحقيقة من أقوال زعماء المستشرقين، ومن ذلك مثلاً ما يقوله برنارد لويس: (لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين، ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية[1]. ويقول: نورمان دانيل[2]: (على الرغم من

---

(1) د. محمود زقزوق/ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري/ كتاب الأمة (5) ط1. ص73.

(2) نورمان دانيل: (DANIEL NORMAN) مستشرق إنجليزي ولد سنة 1919 تخرج في جامعة أدنبرة وعمل في عدد من البلاد العربية، وكان آخر أعماله مدير المجلس الثقافي البريطاني في القاهرة، له عدد من الأعمال تهتم في معظمها بالبحث عن العلاقة بين الإسلام والغرب، يأتي في مقدمتها: الإسلام والغرب/ الإسلام، أوروبا والإمبراطورية، العرب وأوروبا القرون الوسطى. حصر اهتمامه بتحسين صورة الإسلام في أوروبا، وبتحسين العلاقة الإسلامية المسيحية. انظر: (الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا)/ ميشال جحا، ص58.

المحاولات الجديدة المخلصة التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب النصارى من الإسلام فإنهم لم يتمكنوا أن يتجردوا منها تجرداً تاماً)[1].

هـ ـ الارتباط الواضح والمستمر بين الهيئات الاستشراقية والإرساليات التنصيرية التي استفادت كثيراً من الاستشراق الذي يعد الهيئة الاستشارية للتنصير، ولا نعدم أمثلة للمستشرقين الذين عملوا مع الدوائر التنصيرية، وكانوا خير عون لها في تنشيط حركتها في العالم غير المسيحي عامة وفي العالم الإسلامي خاصة، ومن هؤلاء مثلاً جيوم[2] وكتابه الإسلام، وسميث[3] وكتابه (الإسلام في التاريخ الحديث)، وأندرسون[4] وكتابه (تاريخ الأديان)، ولامانس[5] ودراساته: (الحكام الثلاثة: أبو بكر وعمر وأبو عبيدة) و(محمد)

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) الفرد جيوم ALFRED GUILLAUME مستشرق إنجليزي مشهور تقلد عدداً من المناصب العلمية وعمل في الجيش البريطاني، نال شرف عضوية بعض المجامع العلمية العربية، خلّف بعض الأعمال المهمة التي نذكر منها: (تأثير اليهودية على الإسلام) (الإسلام) (حياة محمد) الخ... انظر: ميشال جحا (الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا/ ص48.

(3) روبرتسون سميث ROBERSON SMITH مستشرق اسكتلندي ولد سنة 1846، ترأس كرسي اللغة العربية في جامعة كمبريدج، رحل كثيراً إلى الشرق حتى وصل إلى الطائف، رأس الفريق الذي وضع الموسوعة البريطانية، خلّف عدداً من الأعمال منها: التاريخ العربي قبل الإسلام. انظر: (ميشال جحا/ الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا. ص39.

(4) أندرسون ANDERSON. J. N. D مستشرق إنجليزي خلّف عدداً من الأعمال منها: الشرع والفقه الإسلامي/ إبطال الزواج على المذهب الحنفي/ جريمة القتل في الإسلام/ للمزيد انظر: العقيقي (المستشرقون) ج2. ص564.

(5) هنري لامانس HENRI LAMMENS مستشرق وراهب من أصل بلجيكي معروف بعداوته الشديدة للإسلام، قال عنه الدكتور بدوي إنه النموذج السيىء جداً للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين، عاش فترة طويلة في بيروت معلماً في الكلية اليسوعية ومديراً لمجلتي المشرق والبشير، ترك عدداً كبيراً من الأعمال تدور معظمها حول السيرة النبوية والخلافة الأموية. للمزيد انظر: (د. عبد الرحمن بدوي/ موسوعة المستشرقين/ ص348.

و(تاريخ السيرة) و(المساجد والمشاعر في العصر الجاهلي)، وزيمونين[1] وكتابه (أجواء فلسطين وسوريا) وغير ذلك من المؤلفات التي لا تحصى، والتي كانت خير زاد للمنصرين في استعمالها وإشاعتها في الأوساط الثقافية في العالم الإسلامي وغيره[2].

الدافع الاستعماري:

الحديث عن الدافع الاستعماري وراء دراسات المستشرقين قد لا يرضي بعض مفكرينا وباحثينا ممن قويت صلاتهم بهم، ذلك لأنهم يرون في مثل هذه الآراء نوعاً من التحامل الديني الذي لا يقوم على أسس علمية، والحقيقة أنني حين أذكر هذا الدافع أستند إلى الكثير من الوقائع التاريخية التي تفوق الحصر، واستشعر عند ذكري لها وجهة نظر هؤلاء الباحثين، ولذلك فإني أذكرها بعناية وحرص أساسه الاعتماد على الدليل والبرهان المنطقي العلمي.

وأحب أن أأكد أن الاستشراق في بدايته لم تربطه بالنظرية الاستعمارية أي روابط وإنما كان محكوماً فقط بالنوازع الدينية والعلمية، فالكنيسة ومؤسساتها المختلفة هي الوعاء للاستشراق في هذه المرحلة، منها يتحرك وبإمكاناتها يعمل، وحين اجتاح الفكر الاستعماري أوروبا انطلاقاً من بعض النظريات العرقية التي قادها رينان[3] وأضرابه، وتطلعت الدول الأوروبية إلى

---

(1) الأب زيمونين Zumoffen, p. g راهب من أصل سويسري، انخرط في سلك الرهبانية سنة 1871 واشتغل بالتدريس لفترة طويلة، خلف العديد من الأعمال يتعلق معظمها بالقضايا الجيولوجية ذات الصلة بالبلاد العربية، توفي سنة 1928م. انظر: العقيقي (المستشرقون/ ج3. ص1065).

(2) نذير حمدان/ في الغزو الفكري/ مكتبة الصديق. الطائف ص148.

(3) مستشرق فرنسي عاش في الفترة (1812/1892) بلبنان وتضلع في العلوم الشرقية، ساهم بشكل فعال في الدراسات الأنتربولوجية التي أدت إلى ظهور النظريات العرقية التي استفاد منها الاستعمار الغربي كثيراً. للمزيد: انظر (المستشرقون/ العقيقي/ ج1 ص202.

استعمار العالم الشرقي احتاج هؤلاء إلى الكثير من المعلومات التي تساعدهم في تحقيق تطلعاتهم الاستعمارية وقد وجدوا في المستشرقين قوالب جاهزة ذات علاقة قوية بالشرق، وعلى دراية كافية بالكثير من المعلومات التي تمهد لحركة الاستعمار، ومن هنا تم التلاحم بين الاستشراق والاستعمار، ودخل المستشرقون في مرحلة جديدة هي المرحلة الاستعمارية.

لقد تم التعاون والارتباط المشار إليه بأشكال وصور متعددة سنعرض فقط لبعضها وهي:

1 - ساهم تنقل المستشرقين وترحالهم في بلدان العالم الشرقي، وما نتج عن هذه الرحلات من مؤلفات في إعطاء صورة واضحة لصناع القرار الغربي في اختيار الأمكنة الملائمة لتوجيه جيوشهم، وفي توزيع رقعة العالم الشرقي بينهم، وربما لا يعرف الكثيرون أن نابليون تأثر في وضع خطته بكتاب (الكونت دي فولني)[1]: (رحلة في مصر وسوريا) الذي ظهر في مجلدين عام 1787م، وقد تعرض فولني في الجزء الثاني من كتابه للإسلام ولكن كتاباته عنه من حيث إنه دين، ومن حيث إنه نسق من النظم السياسية كانت تتسم بالتحامل، فأدى به هذا في نهاية الأمر إلى اعتبار الشرق الأدنى ليس أكثر من مكان يمكن لفرنسا أن تحقق فيه مطامعها الاستعمارية[2]. ونفس المعنى هذا ما أكده إدوارد سعيد حين قال: (ولا شك أن نظريات كرومر حول الشرقي - وهي نظريات

---

(1) دي فولني DE VOLNEY: مستشرق فرنسي رحل إلى مصر وسوريا سنة 1782 ودون آراءه في كتاب لم يلبث أن نال شهرة واسعة عد بها أحد كتاب الرحلات المشهورين، أهدى منه نسخة إلى قيصرة روسيا الثانية كاترين وأهدى نخسة أُخرى إلى نابليون الذي تأثر به في حملته على مصر. للمزيد انظر د. طلال المختار (آثار حملة بونابرت على مصر) الجامعة اللبنانية. ص24.

(2) د. شكري النجار (لِمَ الاهتمام بالاستشراق) مجلة الفكر العربي 31 معهد الإنماء العربي/ بيروت.

اكتسبت من سجل المحفوظات الاستشراقي التقليدي ـ وجدت تسويغاً وافراً حين قام كرومر[1] بحكم الملايين من الشرقيين في الواقع الفعلي، ولم يكن هذا بأقل صدقاً، فيما يتعلق بالتجربة الفرنسية في روسيا وشمال أفريقيا وأمكنة أُخرى، من المستعمرات الفرنسية على قلتها، ولكن التقاطع بين مذهب الاستشراق الكامن وبين تجربة الاستشراق الظاهر لم يبلغ في أي وقت آخر ما بلغ من الاحتدامية عندما كانت بريطانيا وفرنسا ـ نتيجة للحرب العالمية الأولى/ تقومان بمسح جغرافي لتركيبة الآسيوية من أجل تقطيعها) ثم يستمر إلى أن يقول: (لقد كان ثمة لمحات سابقة لدوره (المستشرق) الحاسم كعميل سري داخل الشرق حين أرسل الباحث البريطاني إدوارد هنري بالمر إلى سيناء عام 1882م، ليقدر المشاعر ضد بريطانيا وإمكانية تجنيدها لحساب ثورة عرابي، ولقد قضى بالمر[2] أثناء ذلك، ولكنه لم يكن إلا الأقل نجاحاً بين الذين قدموا خدمات مشابهة للإمبراطورية، ولم يكن عبثاً أن مستشرقاً آخر هو دي. جي. هو غارث مؤلف المسرد المشهور لاستكشاف شبه الجزيرة العربية (1904) عين رئيساً للمكتب العربي في القاهرة خلال الحرب العالمية الأولى، كما لم تكن مصادفة أن رجالاً

---

(1) اللورد كرومر: Cromer مستشرق إنجليزي اشتغل بالجوانب السياسية حيث عين مندوباً سامياً في مصر، وكان له تأثير كبير على الحياة السياسية فيها، من أهم أعماله: تقرير كرومر الشهير (مصر الحديثة) الخ... انظر: العقيقي (المستشرقون) ج2، ص499.

(2) إدوارد هنري بالمر palmer. E. H مستشرق بريطاني مشهور ولد سنة 1840 أتقن العديد من اللغات، اهتم بالدراسات الشرقية ثم رحل إلى الشرق وعاش في البادية العربية/ استعمله الجيش البريطاني في أغراض تجسسية وتخريبية نظراً لإتقانه العربية ومعرفته بقبائل العرب، سمى بالشيخ عبد الله أثناء رحيله إلى الجزيرة العربية التي قتل فيها، رثاه الشعراء بخمس عشرة لغة من بينها العربية، خلف العديد من الأعمال يأتي في طليعتها: التصوف الشرقي/ ترجمة القرآن الكريم/ سيرة هارون الرشيد/ رحلة في شبه جزيرة سيناء/ فهرس المخطوطات العربية. الخ... انظر: العقيقي (المستشرقون) ج2 ص482.

ونساء مس جرترودبل[1] وتي، أي لورنس[2]، وسانت فيلي وجميعهم خبراء شرقيون أرسلوا إلى الشرق كعملاء للإمبراطورية[3]).

2 ـ ومما له صلة بإيضاح الدافع الاستعماري لدى المستشرقين ما قام به بعضهم من خدمات مباشرة للحركة الاستعمارية؛ فقد كلف الكثير منهم بمهام محددة، نذكر منها على سبيل المثال ما قام به بعض المستشرقين من دارسات تحت رعاية شركة الهند الشرقية، التي لا يخفى على أحد دورها الاستعماري في شبه القارة الهندية، وكذلك ما قام به الكثيرون في بداية حركة الاستشراق.

ولزيادة الإيضاح نذكر بالاسم مثلاً المستشرق (فيلبي)[4] الذي ترأس بعثات بريطانية إلى الجزيرة العربية والأردن، وكانت نتيجة تجواله تزويد أجهزة المخابرات البريطانية بخرائط ومعلومات متنوعة وهامة.

---

(1) الآنسة: جرترود بل Bell, Miss Gertrude مستشرقة إنجليزية ولدت سنة 1868، طافت بلداناً عربية عديدة، عملت في المجال السياسي حيث عينت مترجمة في السفارة البريطانية في مصر وفي العراق التي كان لها تأثير كبير فيها حيث سميت ملكة العراق غير المتوجة، أتقنت العديد من اللغات وخلفت العديد من الأعمال يتعلق معظمها بوصف البلدان التي عملت فيها أو زارتها. انظر: نذير حمدان (مستشرقون) مكتبة الصديق/ ص48.

(2) لورنس LAWRENCE, T. E شخصية استشراقية شهيرة ارتبط اسمه بالعرب حتى سمى بلورانس العرب (LAWRENCE OF ARABIA) ولد سنة 1888 ولعب دوراً بارزاً في تصويره البيئة العربية وفي تقرير البيئة السياسية المتعلقة بالعالم العربي، عمل في الجيش الإنجليزي حتى وصل إلى رتبة متقدمة فيه، خلف العديد من الأعمال منها: أعمدة الحكمة السبعة ـ القلاع الصليبية انظر: د. ميشال جحا (الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا) ص42.

(3) إدوارد سعيد ـ الاستشراق.

(4) فيلبي PHILBY H. J. B مستشرق إنجليزي ولد سنة 1885 ترأس البعثة البريطانية إلى الأردن، عمل مستشاراً في عدد من الوزارات العربية. خلف عدداً من الأعمال من أهمها: قلب الجزيرة العربية ـ أسس الإسلام ـ جزيرة العرب في عهد الوهابيين، انظر: نذير حمدان (مستشرقون) مكتبة الصديق. ص43.

ونذكر أيضاً كراوس[1] التشيكي، و(هرجرونيه)[2] الهولندي و(ماسينيون) الفرنسي الذي كان يشغل منصب مستشار المستعمرات الفرنسية، والذي خلف ما يقرب من 650 مصنفاً الخ. ذلك من الأسماء الكثيرة التي تتحدث عنها كتب التراجم والتي ساهمت بدور واضح وفعال في إذكاء حركة الاستعمار الغربي[3].

ويحضرني هنا اعتراف أحدهم صراحة بخدمة المصالح الاستعمارية وهو المستشرق الإسباني بيدور مارتينت مونتافيت[4]، الذي يقول في حوار أجري معه: (ظاهرة تاريخية معروفة، وهي أن معظم المستشرقين الغربيين كان مرتبطاً بشكل ما مع النفوذ الاستعماري الغربي في المنطقة وعلينا أن نعترف بهذا فنحن نتكلم عن التاريخ وليس عن أشياء خيالية أو بعيدة عن الحقيقة[5].

ومن ضمن ما يؤكد أيضاً خدمة المستشرقين للمصالح الاستعمارية أن

---

(1) بول كراوس PAUL ELIEZER KRAUS ولد سنة 1904 في براغ من أسرة يهودية اشتغل بالكثير من الأبحاث والدراسات الفلسفية وكان له نشاطات مشبوهة أدت إلى انتحاره في شقته في القاهرة حيث كان يعمل هناك في الجامعة المصرية. انظر: د. بدوي (موسوعة المستشرقين) ص. 325.

(2) سنوك هرجرونيه CHRISTIAAN SNOUCK HURGRONJE مستشرق هولندي له نشاطات سياسية مشبوهة رحل من أجلها إلى مكة وأقام فيها إلى أن طرد منها، وعمل في خدمة إدارة المستعمرات الهولندية. للمزيد انظر: د. بدوي (موسوعة المستشرقين) ص245.

(3) نذير حمدان (مستشرقون جامعيون سياسيون مجمعيون) ص25 وما بعدها.

(4) بيدرو مارتينت مونتافيث MARTINEZ MONTAVEZ. مستشرق إسباني ولد سنة 1933، وتخرج في جامعة مدريد سنة 1956 أعد رسالة الدكتوراه بالقاهرة عن المجاعة في مصر أيام المماليك وتبدل الأسعار، وعمل مديراً للمركز الثقافي الإسباني في القاهرة من 1958/ 1962) خلف الكثير من الأعمال العلمية نذكر منها: أ ـ أمراء الأندلس وخلفاؤها ب ـ التيارات الأدبية على المسرح المصري ج ـ شخصية المنصور في نصوص المؤلفين النصارى، ترجم الكثير من الأعمال الأدبية إلى الإسبانية لنجيب محفوظ ويوسف إدريس وغيرهم. انظر: نجيب العقيقي (المستشرقون) ج2، ص616.

(5) مجلة الموقف الأدبي عدد 22س 1981م.

الحكومة الإيطالية حين قررت غزو ليبيا لجأت إلى المستشرقين، وقد ورد ذلك في قول الكاتب الفرنسي ألبير دوزا في كتابه (التوسع الإيطالي) منشور الجنرال كانيفا أعد وطبع باللغة العربية في روما، هذا المنشور الذي وزع على الليبيين يوم 5 أكتوبر 1911م اختار المستشرقون عباراته بدقة عالية مراعين كل الظروف والأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية، ومما جاء فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على كافة المرسلين صلى الله وسلم عليهم أجمعين: فيا سكان طرابلس وبرقة اذكروا أن الله قال في كتابه العزيز (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)، ثم بعد الاستشهاد خمس مرات بالآيات القرآنية خلص المنشور إلى القول التالي: إرادة الله ومشيئته سبحانه قضتا أن تحتل إيطاليا هذه البلاد، لأنه لا يجري في ملكه إلا ما يريد فهو مالك الملك وهو على كل شيء قدير، فمن أراد أن يظهر في الكون غير ما أظهره مالك الملك رب العالمين المنفرد بتصرفاته بملكه، الذي لا شريك له فيه، فقد جمع الجهل بأنواعه وكان من الممترين، وبناء عليه يلزم على كل مؤمن أن يرضى ويسلم بما تعلقت به الإرادة الربانية وأبرزته القدرة الإلهية، فالملك له سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء[1].

3 ـ ومما له صلة بما تقدم هو ذلك النوع من المستشرقين الذين عملوا ضباطاً في الجيوش الأوروبية، فهؤلاء جمعوا إلى جانب عملهم الأكاديمي عملاً استعمارياً هو الذي من خلاله نؤكد على وجود الدافع الاستعماري وراء حركة الاستشراق، ومن هؤلاء السير جون مالكوم[2]

---

(1) محمد القمودي (سموم الاستشراق) مجلة العربي العدد 273 السنة1981م.

(2) السير جون مالكوم SIR JOHN MALCOLM مستشرق بريطاني يحمل رتبة مقدم في الجيش الإنجليزي، خلف كتاباً واحداً هو: تاريخ فارس في جزءين. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج2، ص477.

برتبة مقدم، وفيلوت[1] وهو برتبة عقيد وهما من الإنجليز، ونذكر أيضاً زامبور[2] النمساوي برتبة مقدم، والكونت دي كاستري[3] الفرنسي وهو برتبة مقدم، والضابط المستشرق المشهور ليفي بروفنسال[4] [5].

4 ـ وفي إطار تأكيد الدافع الاستعماري أذكر ذلك النوع من الدراسات الاستشراقية التي ركزت على ما يسمى بالفرق الإسلامية والتي شغلت حيزاً كبيراً من نشاط المستشرقين، ولم يكن لها بالمقابل أية دراسة تستهدف البحث في الإسلام الموحد الذي جسده عصر الرسول ﷺ، ويضاف إلى ذلك دراسات أُخرى استهدفت التركيز على إثارة النعرات الطائفية والحزبية والمذهبية ومحاولة تجذيرها، ولا شك في أن هذه الدراسات كانت عاملاً مهماً ساعد الاستعمار الغربي في استخدام سياسة (فرق تسد) وبالتالي إحكام قبضته على مناطق العالم الشرقي.

---

(1) فيلوت PHILLOTT. D. C مستشرق إنجليزي نال رتبة كبيرة في الجيش الإنجليزي وخلف عدداً كبيراً من الأعمال العلمية يأتي في مقدمتها: السحر عند الفرس والمصريين والعرب/ الشيعة/ نفحات اليمن الخ.

(2) زامبور Zambaur. E. Von مستشرق ضابط اهتم بالتاريخ الإسلامي توفي سنة 1949، خلف عدداً من الأعمال نذكر منها: الأنساب والتأريخ الإسلامي الذي ترجمته جامعة الدول العربية وطبع بالقاهرة/ دراسات أُخرى عن النقود.

(3) الكونت دي كاستري Castries. cte. H مستشرق عمل ضابطاً في الجيش الفرنسي واهتم بمنطقة المغرب، ولد سنة 1850 وتوفي سنة 1927، خلف بعض الأعمال حول المغرب منها: مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب/ سادة المغرب السبعة/ تنصر ثلاثة أمراء من المغرب.

(4) ليفي بروفنسال .LEVI PROVENCAL مستشرق فرنسي كبير، نال شهرة واسعة في عالم الاستشراق عمل في الجيش الفرنسي واشترك في الحرب وجرح في موقعة الدردنيل، تقلب في مناصب سياسية وعلمية وعسكرية عديدة وخلف عدداً كبيراً من الأعمال يصعب ذكرها في هذه الأسطر القليلة ولكننا نكتفي بذكر عدد منها وهي: التقويم التاريخي لمطبوعات فاس/ الدين وإكرام الأولياء والجمعيات الدينية في شمال المغرب/ تاريخ إسبانيا الإسلامية في القرن الحادي عشر. انظر في كل ما تقدم: العقيقي (المستشرقون).

(5) نجيب العقيقي (المستشرقون)/ دار المعارف ط3/ 1964م.

3 ـ الدافع الاقتصادي:

تشير الكثير من المصادر أن المستشرقين لهم مساهمات واضحة في مساعدة العالم الغربي على رسم سياسة اقتصادية تستهدف استنزاف ثروات الشعوب الشرقية، واستمرارية اعتمادها على ما تنتجه المصانع الغربية، فالدراسات الاستشراقية عملت على كشف العقلية الشرقية، من جميع جوانبها؛ الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنفسية، وأبانت عن كل ما يحتاج إليه الشرقي وما يفضله، وكان ذلك سبباً في إغراق الأسواق الشرقية بالمنتجات الغربية المصنعة خصيصاً لها، وهذا أدى إلى الاعتماد دائماً على المستورد الغربي دون التفكير في استغلال الموارد والتصنيع المحلي، وهكذا تستمر السيطرة الاقتصادية الغربية على شعوب العالم الشرقي، ويستمر استنزاف خيراته وفق دراسات متجددة يقوم بها مستشرقون في مختلف دول العالم الغربي، يقول إدوارد سعيد في معرض حديثه عن السيطرة الاستشراقية على الشرق: (. . . غير أن هذا كله في اعتقادي ضئيل بالمقارنة مع العامل الثاني الذي يسهم في انتصار الاستشراق: وهو حقيقة طغيان الاستهلاكية في الشرق، فالعالم العربي أو الإسلامي عامة عالق في صنارة نظام السوق الغربي، وما من أحد يحتاج إلى التذكير بأن النفط، المورد الأعظم للمنطقة قد امتص امتصاصاً كاملاً ضمن اقتصاد الولايات المتحدة)[1].

4 ـ الدافع السياسي

للاستشراق أيضاً دوافعه السياسية التي تتمثل في أولئك المستشرقين العاملين في مختلف السفارات والهيئات الدبلوماسية الغربية ذات العلاقة بالعالم الشرقي، وهؤلاء، بطبيعة الحال، يتكلمون اللغات الشرقية ويعرفون

(1) إدوارد سعيد (الاستشراق) ص321.

لهجاتها، ولهم دراية بالتركيبة السكانية للمنطقة، فهم يمارسون إلى جانب كونهم مستشرقين دوراً سياسياً يتمثل في ربط سياسات العالم الغربي بدول الشرق، وكمثال على هؤلاء نذكر المستشرقين جون بادو[1] الذي عمل سفيراً لأمريكا في القاهرة، وبرتشرد[2] الأنجليزي الذي عمل قنصلاً في تونس، والفرنسي بونيون[3] الذي عمل قنصلاً في حلب، والإسباني جونثالث[4] الذي عمل قنصلاً في الجزائر، والهولندي دينجماس[5] الذي عمل سفيراً في الباكستان والإيطالي فيتو[6] الذي عمل قنصلاً في بيروت[7]. إلى غير ذلك من الأسماء الكثيرة التي لا تحصى في هذا الميدان.

5 ـ الدافع العلمي:

لا شك في أن هناك طائفة كبيرة من المستشرقين قد عملت في هذا

---

(1) جون بادو .JOHN B مستشرق أمريكي تولى إلى جانب عمله الأكاديمي أعمالاً دبلوماسية، تولى أيضاً مدير معهد الشرق الأوسط بجامعة كولومبيا، سنة 1946م. ثم عمل أستاذاً بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ثم عميداً لها. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج3 ص980,.

(2) برتشرد وود .BRECERD. W مستشرق إنجليزي خلف أعمالاً محدودة جداً منها: الأدلة الجلية في موافقة الشريعة الإسلامية لقواعد الإنسانية والإسلام والإصلاح. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج2. ص782.

(3) بونيون .POGNON H مستشرق فرنسي ولد سنة 1853 عمل بالتدريس إلى جانب علمه الدبلوماسي، اهتم بالآثار وخلف فيها عدداً من الأعمال العلمية منها: الآثار السامية المكتشفة في الشام. كتابة بختنصر/ نصوص سريانية وآشورية. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج1. ص334.

(4) جونثالث .GONYALEY. j مستشرق إسباني خلف فيما أعلم أثراً واحداً هو: فتح الأندلس. انظر: نذير حمدان (مستشرقون) ص59.

(5) دينجماس DINGEMANS مستشرق هولندي ولد سنة 1907 خلف فيما أعلم عملاً واحداً هو: نشر من إحياء العلوم للغزالي. انظر المصدر السابق ص. 60.

(6) فيتو VITTO. ENRICO مستشرق إيطالي ولد سنة 1844 وتوفي سنة 1904 نشر وترجم بعض الأعمال منها: نيل الأرب وألفيه ابن مالك. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج1/ ص366.

(7) نذير حمدان (مستشرقون) مصدر سابق.

المجال بدافع حب الاستطلاع وجمع المعرفة والاستزادة من العلوم والمعارف التي خلفتها الحضارة العربية إبان ازدهارها، وهذا الجانب توضحه حركات البعثات التي كنت قد أشرت إليها سابقاً، ويوضحه أيضاً اهتمام عدد كبير من المستشرقين / وخاصة الألمان/ بجمع وتحقيق وفهرسة التراث الإسلامي.

ومن هذا الجانب أيضاً تلك الدراسات المتجردة للإسلام والعربية التي خلت من كثير من السلبيات التي صاحبت الدراسات الاسشتراقية، وأذكر منها على سبيل المثال دراسات: مارسيل بوازار ولورافيشيا فاغليري[1] وريسكه[2] وإتيان دينيه وليوبولد فاس[3] وروجيه غارودي[4] وغيرهم كثير.

---

(1) لورافيشيا فاغليري VAGLIERI. L. VECCIA مستشرقة إيطالية مهتمة بالتاريخ الإسلامي وبالقضايا الليبية لها روح منصفة ترتفع إلى أشدها في كتابها (دفاع عن الإسلام) خلفت عدداً غير يسير من الأعمال منها: قواعد العربية/ رحلة حاج عبر ليبيا في القرن السابع عشر/ اشتراك سليمان الباروني في حرب ليبيا. الخ. انظر العقيقي (المستشرقون) ج1، ص404.

(2) ريسكة JOHANN JAKOB REISKE مستشرق ألماني ولد سنة 1716 وتوفي سنة 1774، ولع ولوعاً شديداً بالعربية وتحمل في سبيل تعلمها مشاق كبيرة، اهتم بنشر النصوص ونشر منها: رسالة ابن زيدون إلى ابن عبدوس/ الجزء الأول من تاريخ أبي الفداء/ ترجم إلى الألمانية لامية العجم للطغرائي. انظر: د. عبد الرحمن بدوي (موسوعة المستشرقين). ص205 وما بعدها.

(3) ليوبولد فايس (محمد أسد) WEISS. L. مستشرق نمساوي درس الإسلام بمنهج علمي قاده إلى اعتناقه وكتب في وصفه كتابين مهمين هما: الطريق إلى مكة والطريق إلى المدينة، اهتم بتصحيح أخطاء المستشرقين عن الإسلام في مجلة الثقافة الإسلامية في حيدر آباد التي أنشأها صحبة مستشرق مسلم هو وليم بكتول، خلف عدداً من الأعمال المهمة منها: الإسلام على مفترق الطرق/ أصول الفقه الإسلامي/ مبادىء الدولة والحكومة في الإسلام الخ، انظر: العقيقي (المستشرقون) ج2. ص642.

(4) روجي جان شارل غارودي R. Garaudy مفكر فرنسي ولد سنة 1913 بمدينة مرسيليا، كان مسيحي الديانة شيوعي الفكر، اختير عضواً في الحزب الشيوعي ورئيساً لجميعة الشبان المسيحيين البروتستانت، اعتقل سنة 1940 وسجن بالصحراء الجزائرية، وفي السجن كان أول احتكاكه بالإسلام، وبعد دراسات فلسفية عميقة تجول فيها بين نظريات وأفكار متعددة تنتمي إلى أديان ومذاهب متعددة أشهر إسلامه في سنة 1982 بسويسرا، وكتب حوله كتباً متعددة أهمها (وعود الإسلام)، (الإسلام دين المستقبل)، (لماذا أسلمت؟). للمزيد انظر: محمد الميلي (روجيه جارودي والمشكلة الدينية) دار قتيبة/ ص23 وما بعدها.

وسـائل الاستشـراق

نقصد بوسائل الاستشراق كل ما استخدمه المستشرقون من أدوات وطرق لتوصيل أفكارهم ونظرياتهم سواء أكان ذلك للعالم الغربي أم إلى شعوب العالم الشرقي، ونظراً لتعدد هذه الوسائل فإني أجملها في التالي:

1 ـ العمل الجامعي:

ويشمل هذا النوع من العمل /الذي يكاد يكون السمة الرئيسة للعمل الاستشراقي/ التدريس، وإنشاء كراسي الدراسات الشرقية، والمعاهد المتخصصة في مجال اللغات الشرقية، والإشراف على برامج الدراسات العليا، وتنظيم المحاضرات واللقاءات الفكرية المتنوعة، وتأليف الكتب المنهجية، والمستهدف بهذا النشاط الفكري ليس العربي وحده وإنما يصل ذلك إلى عقول شبابنا ممن دفعنا بهم إلى التعلم في المؤسسات الغربية، والذين كانوا ولا يزالون أكثر الناس تعرضاً لحملات الفكر الاستشراقي المضاد للإسلام، وطلابنا /الذين هم بحاجة إلى المؤسسات العلمية الغربية/ لا يستطيعون مواجهة أساتذهم من المستشرقين فيما يوردونه من تحريفات وأغلاط تاريخية ومنهجية، لأن ذلك يجر عليهم سخطاً تكون نتيجته الحرمان من مواصلة التعليم أحياناً، وقد أخبرني صديق يرأس قسم اللغة العربية بجامعة أكرا أنه درس في إنجلترا على أستاذ يدعى (فيشر)، وحدث أن ألقى هذا المستشرق محاضرة عامة تهجم فيها على الإسلام وعلى الشرق، فرد عليه هذا الطالب بأسلوب مؤدب مصححاً ما وقع فيه أستاذه من أغلاط، وكانت النتيجة أن هجره أستاذه لمدة شهر كامل، ثم رفض الاستمرار في الإشراف عليه وبالتالي توجب عليه، العودة إلى بلده دون إتمام دراسته، وغير ذلك كثير تمتلىء به كتب اهتمت بمثل هذه القضايا[1].

(1) انظر على سبيل المثال: الاستشراق والمستشرقون، د. مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي.

لقد شغلت المحاضرة الجامعية حيزاً مهماً في العمل الاستشراقي، فهي توفر للمستشرق فرصة كبيرة في طرق العديد من الأفكار والانتقال بين مواضيع كثيرة قد لا توفرها فرصة التأليف المنهجي، وإذا كانت هذه المحاضرة عامة وخارج نطاق المنهج فإن فرصة العمل فيها أفضل لكثرة حضورها وتنوع اهتماماتهم، ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال محاضرة أحدهم بجامعة لندن التي ضمنها كل اعتراضات العصور الوسطى على محمد ﷺ وعلى الإسلام دون إبداء أي احترام للحاضرين، وقد أعلن في مقدمته أنه يقدم معلومات صحيحة تعالج القضية موضوعياً بغرض الإنصاف والتدقيق، وكانت نتيجة هذه الدراسة في النهاية أن محمداً قد تمثل أفكاراً في التلمود وبعض المصادر المحرفة.

ونظراً لأهمية التدريس الجامعي في نشر الفكر الاستشراقي فقد عمل المستشرقون على الدخول في الجامعات العربية خاصة والشرقية عامة، وشهدت كثير من هذه الجامعات عصراً كان المستشرقون هم رواد التدريس فيها، ونذكر على سبيل المثال: (بلتيه)[1] الذي درس في كلية الحقوق بالجزائر و(هوداس)[2] الذي عين أستاذاً للغة العربية في الجزائر، و(هنري باسه)[3] الذي عين مديراً لمعهد الدراسات العليا في الرباط، وفي الجامعات

---

(1) بلتيه: PELTIER. FR. مستشرق فرنسي له عدد محدود من الأعمال منها: تراجم من صحيح البخاري مثل: البيوع والسلم والخيار// والبيوع من الموطأ لمالك بن أنس. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج1. ص217.

(2) هوداس HOUDAS. O. مستشرق فرنسي كبير ولد سنة 1840 وتوفي سنة 1916، اهتم بقضايا المغرب الأقصى ثم عني بتاريخ السودان، وخلف في تاريخ هاتين المنطقتين أعمالاً هامة منها: تاريخ المغرب الحديث، نشر وحقق وترجم عدداً من الأعمال منها: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس لمحمود كاتي، وتاريخ السودان لعبد الرحمن التنبكتي الخ، انظر: د. عبد الرحمن بدوي (موسوعة المستشرقين) ص. 429.

(3) هنري باسه PASSET. H. أحد أفراد عائلة باسه الاستشراقية الشهيرة التي اهتمت بدراسة الإسلام والمسلمين وما يتعلق منها بقضية البربر بصفة خاصة. عين مديراً لمعهد الدراسات العليا في الرباط، وأسس سنة 1921 مجلة الدروس المغربية والبربرية، توفي سنة 1926، من أعماله: تاريخ

المصرية كان الإيطاليون جويدي[1] وسانتلانا[2] ونللينو[3]، والفرنسي كازانوفا[4]، والبلجيكي جريجوار[5]، والألماني شاخت[6] وغيرهم كثير،

آداب قبائل البربر/ التأثيرات الفينيقية لدى البربر/ الخ. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج1/ ص. 227.

(1) إنياتسيو جويدي IGNAZIO GUIDI أحد أبرز أعلام المستشرقين الإيطاليين ولد بروما سنة 1844 ودرس العربية في جامعاتها، زار عدداً من البلدان العربية وعين أستاذاً للأدب العربي في الجامعة المصرية، أتقن اللغة العربية وحاضر بها وتتلمذ عليه عدد من قادة الفكر العربي في مصر، أتقن عدداً من اللغات وألف بها، نشر عدداً من الأعمال منها قسم من تاريخ الطبري، فهرس العديد من المخطوطات في مكتبة فيتوريو إيمانويل ومكتبة أنجليكا أكسندرينا، أشهر كتبه تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام. انظر: ميشال جحا (الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا) ص. 93.

(2) سانتلانا DAVID SANTILLANA من ألمع المستشرقين الإيطاليين ولد سنة ا1855 وتوفي سنة 1931، اهتم بالفلسفة الإسلامية والقانون، اشترك في اللجنة التي أعدت القوانين التونسية، له أعمال علمية مهمة منها: الموجز في الحقوق الإسلامية للخليل. الحقوق الإسلامية وفقاً للمذهب المالكي وهو من أهم الكتب في موضوعه. انظر: ميشال جحا (الدراسات العربية) ص. 91.

(3) كارلو نللينو CARLO ALFONSO NALLINO من أشهر المستعربين في إيطاليا ولد في تورينو سنة 1872 رحل إلى البلاد العربية كثيراً ودرس في الجامعة المصرية، ومن أبرز تلاميذه فيها الدكتور طه حسين، اختص باللغة العربية والحضارة الإسلامية ومن أشهر مؤلفاته: تاريخ الأدب العربي وتاريخ الفلك عند العرب في القرون الوسطى، نشرت أبحاثه بعد وفاته في ستة مجلدات تتناول العرب لغة وعقيدة وتاريخاً وحضارة. انظر: ميشال جحا (الدراسات العربية) ص94.

(4) كازانوفا CASANOVA. P. مستشرق فرنسي كبير ولد سنة 1926 رحل إلى مصر واهتم بها وانتدبته الجامعة المصرية أستاذاً لفقه اللغة/ له مؤلفات كثيرة منها: محمد. وانتهاء العالم في عقيدة الإسلام الأصلية/ عقيدة الفاطميين السرية في مصر/ آلهة عرب الجاهلية. الخ. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج1. ص225.

(5) جريجوار GREGOIRE. H مستشرق بلجيكي ولد سنة 1888 عين عميداً لكلية الآداب بالجامعة المصرية من 1926/ 1930، خلف عدداً لا بأس به من الأعمال نذكر منها: الإسلام والملحمة البيزنطية، الأرمن بين بيزنطة والإسلام، الخ. . انظر: العقيقي (المستشرقون) ج3. ص1030.

(6) شاخت JOSEPH SCHACHT من أشهر المستشرقين الألمان ولد سنة 1902، انتدب للتدريس بالجامعة المصرية سنة 1934، أحد الذين أشرفوا على دائرة المعارف الإسلامية، تخصص في الإسلاميات وخاصة الفقه، نشر وحقق عدداً من المخطوطات، من أعماله: كتاب الحيل في الفقه للقزويني، كتاب الشفعة للصحاوي، اختلاف الفقهاء للطبري، الإسلام. الخ. انظر: د. بدوي (موسوعة المستشرقين) ص252.

ومن جامعات سوريا ولبنان كان ألفرد كارلتون[1] في سوريا ورويمر[2] في بيروت يشغل مدير معهد الدراسات الإسلامية[3] الخ. تلك القائمة الطويلة من أسماء المستشرقين الذين عملوا في الجامعات الشرقية أساتذة وقياديين في مؤسسات علمية، وكان لهم أثر كبير في خلق أجواء ثقافية جديدة وخلق جيل جديد تشبع بتيار الثقافة الغربي بالقدر الذي جعل طه حسين يؤرخ لهذه الظاهرة فيقول: كان لسنة 1915م في مصر مذهبان أحدهما مذهب القدماء والآخر مذهب الأوروبيين استحدثته الجامعة المصرية بفضل الأساتذة نللينو ومن زامله وخلفه من المستشرقين مثل جويدي وفييت، وقد عهدت إليهم بدرس تاريخ الأدب فدرسوه بمناهجهم الحديثة فعلموا الطلاب كيف يبحثون... إلى أن يقول: وكيف نتصور أستاذاً للأدب العربي لا يلم ولا ينتظر أن يلم بما انتهى إليه الفرنج من النتائج العلمية المختلفة حين درسوا تاريخ الشرق وأدبه ولغاته المختلفة، وإنما يلتمس العلم الآن عند هؤلاء الناس، ولا بد من التماسه عندهم حتى يتاح لنا نحن أن ننهض على أقدامنا ونطير بأجنحتنا ونسترد ما غلبنا عليه هؤلاء الناس من علومنا وتاريخنا وأدبنا[4].

2 ـ تأليف الكتب والمعاجم والموسوعات:

شغل التأليف مكاناً هاماً في نشاط المستشرقين، حيث توجهت أقلامهم

---

(1) الفرد كارلتون: A. Karlton مستشرق أمريكي معاصر عمل مديراً لكلية حلب ثم عين نائباً لرئيس جمعية البعثات الأمريكية التبشيرية في الخارج، انظر: د. محمد البهي (الفكر الإسلامي الحديث) دار الفكر/ ص540.

(2) رويمر ROEMER. H.R مستشرق ألماني ولد سنة 1915، شغل منصب مدير معهد الآثار الألمانية في القاهرة، خلف بعض الأعمال نذكر منها: السفويون، وثائق لتاريخ مصر وإيران في العصر الإسلامي، نشر الجزء التاسع من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر للداودي. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج2. ص808.

(3) نذير حمدان/ مستشرقون/ مكتبة الصديق، ط1 1988 ص. 70 وما بعدها.

(4) د. طه حسين/ في الأدب الجاهلي/ دار المعارف/ ط12/ ص16.

للكتابة حول كل شيء يتعلق بالشرق لغة وأدباً وعقائد وفنوناً وتراثاً وغير ذلك، ففي مجال تأليف الكتب نذكر أن ما يقرب من 60000 كتاب قد ألفت حول الشرق من قبل الغربيين في الفترة ما بين 1900 إلى 1950م[1]، زد على ذلك قبل هذه الفترة وبعدها حتى يومنا هذا، ولم تكن هذه المؤلفات ذات طابع واحد فقد كان الكثير منها يمتلىء بالأخطاء المنهجية والعلمية ويتميز بالأحكام المسبقة، خاصة ما كان منها متعلقاً بالديانات أو بالدين الإسلامي بصورة أدق، وكان بعضها يخلو من مثل هذه السلبيات ويتسم بالروح العلمية المنهجية، إلا أن اعتماده على مرجعية غربية كاملة نظراً لضعف اللغة أدى إلى الوقوع في بعض المزالق، أما القليل النادر من هذه المؤلفات فهو ما كانت الأمور معروضة فيه بصورة علمية ومنهجية صحيحة، وهو الذي يدخل في نطاق أبحاث الدافع العلمي الذي تحدثت عنه سابقاً.

أما موضوع المعاجم فقد قام المستشرقون فيه بجهد فريد لا ينكره إلا من جهله ولم يقف على حقيقته، فما قام به هؤلاء في هذا الجانب قد خدم الباحثين كثيراً في مجالات مختلفة وسد فراغاً هائلاً كانت تعاني منه المكتبة العربية.

وإذا كان لنا من أمثلة على ذلك فلنذكر تاريخ الأدب العربي لـ(كارل بروكلمان)، وتاريخ الأدب العربي لـ(هامر برجتشال)[2] الذي ترجم فيه لـ9915 أديباً وشاعراً، وهناك معجم فينشك الروسي عمل فيه لمدة 15 سنة وتوفي ولم يكمله، ويشتمل دراسات اللهجات في سوريا ولبنان وفلسطين، ومعجم فيشر اللغوي الأدبي المقارن باللغات السامية القديمة، وهناك المعجم العام لهوبلر

---

(1) إدوارد سعيد (الاستشراق) ص. 216.

(2) جوزيف فون هامر برجشتال PURGSTALL\ JOSEF VON HAMMER مستشرق نمساري عاش في الفترة من (1774/ 1856) غزير الإنتاج زادت مؤلفاته على المائة اشتغل بدراسة التاريخ والأدب وتحقيق النصوص واشتغل إلى جانب ذلك بالترجمة والعمل السياسي، للمزيد انظر: موسوعة المستشرقين ص425.

الفرنسي، ومعجم الإسلام (هيوز)، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث الذي وضعه مجموعة من المستشرقين بإشراف ونسنك ومنسنج، ويأتي على رأس هذه المعاجم كلها دائرة المعارف الإسلامية التي ظهرت في الفترة ما بين 1913م، 1938 وانتشرت بعد ذلك، وترجمت وظهرت في طبعات متعددة وأصبحت مرجعاً مهماً للباحثين وخاصة في مجال الدراسات الإسلامية.

ورغم ما صاحب هذه الدائرة وغيرها من المعاجم الأخرى من أخطاء وسلبيات كثيرة، إلا أنها تبقى حاجة ماسة للباحثين ليس لهم غنى عنها إلا حين تتوافر همة علماء الشرق على كتابة معاجم أخرى تكون البديل العلمي الصحيح لما هو متداول الآن، خاصة دائرة المعارف الإسلامية التي يعتبر عدم القيام بها من طرف المسلمين عامة عار يلحق بهم جميعاً، لأن لكل أمة ذات حضارة ورسالة خالدة عملاً علمياً ضخماً يجمع كل ما يتعلق بها من معلومات مفيدة ويقدم للعالم صورة صادقة عنها. ونظراً لعدم وجود مثل ذلك بالنسبة للإسلام فقد استغل المستشرقون هذا الفراغ وعملوا دائرة معارف ضمنوها كل ما أرادوا، وبقي دورنا يتمثل في الفرجة وفي أحسن الأحوال تصحيح ما ترجم منها إلى العربية فقط[1].

3 ـ العمل الصحفي:

نظراً لما للصحيفة والمجلة من أهمية في تقديم المعلومة المختصرة بصورة متجددة وانتشار واسع، فقد عمل المستشرقون على ارتياد العمل الصحفي بإنشاء العديد من المجلات المتخصصة والعامة، وقد قاربت المجلات الاستشراقية 300 مجلة بمختلف اللغات، ومنها على سبيل المثال المجلة الآسيوية الفرنسية، ومجلة الجمعية الآسيوية الملكية الإنجليزية، ومجلة الجمعية الشرقية الأمريكية، ومجلة شؤون الشرق الأوسط، ومجلة

(1) نذير حمدان (في الغزو الفكري) ص251 وما بعدها.

العالم الإسلامي الأمريكية، ونظيرتها الفرنسية التي تحمل نفس الاسم، ومنها أيضاً صحيفة العلماء التي تصدر في فرنسا، ونشرة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة، وكانت أول مجلة استشراقية متخصصة في أوروبا صدرت على يد هامر برجشتال في فينا باسم كنوز الشرق في الفترة ما بين 1809/ 1818 م[1].

4 ـ المؤتمرات الاستشراقية:

من ضمن الوسائل التي ساهمت في تنشيط العمل الاستشراقي فكرة المؤتمرات الاستشراقية التي تجمع ما تفرق من جهود المستشرقين الموجودين في أماكن متعددة من أوروبا، فهذه المؤتمرات كانت فرصة للقاء والتعارف وفرصة أيضاً لتوحيد الجهود وتنظيمها، وقد كانت ذات مستويين: مؤتمرات عامة وأخرى محلية، أما الأولى فقد انطلقت من دعوة وجهها العالم الفرنسي ليون دي روزني[2]، حيث تم عقد أول مؤتمر للمستشرقين سنة 1873م في باريس، وتتابعت بعدها المؤتمرات دورياً إلى الآن، ويشترك في عضوية هذه المؤتمرات مئات العلماء سواء كانوا مستشرقين أم علماء شرقيين يدعون كضيوف مشاركين في كل دورة، وعلى سبيل المثال ضم مؤتمر أكسفورد 900 عالم من 25 دولة و85 جامعة و69 جمعية علمية وبلغت مجموعات العمل ما يقرب من 14 مجموعة تختص كل واحدة منها ببحث مجال معين من مجالات الدراسات الاستشراقية.

ومن ضمن الأمثلة أيضاً المؤتمر السادس والعشرون الذي كان جدول أعماله يتكون من الآتي:

1 ـ علم الآثار المصرية

---

(1) نذير حمدان (في الغزو الفكري) ص251 وما بعدها.

(2) لم أقف له على ترجمة.

2 ـ الدراسات السامية: البابلية والآشورية والدراسات العبرية

3 ـ الدراسات القوقازية

4 ـ الدراسات التركية

5 ـ الدراسات الإيرانية

6 ـ الدراسات الهندية

7 ـ دراسات جنوب شرق آسيا

8 ـ دراسات شرق آسيا

9 ـ الدراسات الإسلامية

10 ـ الدراسات الإفريقية

وقد ناقش هذه الموضوعات 1200 عالم من شتى بقاع المعمورة[1].

ويشارك علماء عرب في هذه المؤتمرات، وأذكر من الذين شاركوا فيها عبد الله فكري، وحمزة فتح الله، وحفني ناصف، ومحمد روحي الخالدي، وإبراهيم مدكور وغيرهم[2].

وقد نال بعضهم جائزة أحد هذه المؤتمرات حيث كان المؤتمر الثامن قد اقترح تقديم جائزة لأحسن مصنف يتناول العرب من حيث بيان أنسابهم، ومشاهير رجالهم، وذكر مساكنهم، وعاداتهم في المأكل والمشرب والزواج، وتفصيل مجامعهم ومفاخرهم ومعتقداتهم وعلومهم وصنائعهم، وقد نال الجائزة محمود شكري الألوسي العراقي على كتابه (بلوغ الأرب في أحوال العرب)[3].

وإلى جانب هذه المؤتمرات كانت تعقد مؤتمرات إقليمية تضم

---

(1) نذير حمدان (في الغزو الفكري) ص258.

(2) د. أحمد سمايلوفتش (الاستشراق وأثره في الأدب العربي المعاصر) ص105.

(3) نذير حمدان (في الغزو الفكري) ص259.

مستشرقي بلد معين، أو الذين ينتمون إلى لغة واحدة، وكانت بدايتها مؤتمر المستشرقين السوفيات الذي عقد في لينينغراد عام 1937م، وحلقة المستعربين السوفيات التي عقدت بطشقند سنة 1958م. وحلقة المستشرقين ببروكسل الخ.. ذلك[1].

ولعل المرء يلاحظ أن هذه المؤتمرات كانت وسيلة لدفع العمل الاستشراقي الذين خفت حدتهم بعد رحيل المستشرقين القدامى الذي كان الواحد منهم يتكفل بعمل ما يقوم به مؤتمر، بل ينتج أكثر من ذلك، أمثال رايسكة ويوهان فوك[2] وبروكلمان، وغيرهم ممن تفانوا في خدمة العمل الاستشراقي، أما وقد ظهر جيل آخر من المستشرقين ليس له صبر الأوائل على البحث والاطلاع، وليس له غزارة إنتاجهم فإن أفضل وسيلة لدفع العمل الاستشراقي هي المؤتمرات التي يجمع نتاجها في مجلدات تدفع إلى القراء في مختلف أنحاء العالم، وقد صدر عن مؤتمر ليدن أربع مجلدات وعن مؤتمر فينا خمسة مجلدات، ومجلد واحد لكل من مؤتمري هامبورج وكوبنهاجن.

5 ـ المجامع العلمية:

من ضمن ما قام به المستشرقون من أعمال محاولة دخولهم إلى المجامع العلمية العربية وخاصة اللغوية منها، وهي وسيلة من الوسائل التي مكنت المستشرقين من الاتصال المباشر بالعلماء والمفكرين العرب

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) يوهان فوك: Fuck Johann من أكابر المستعربين الألمان، ولد سنة 1894، تخصص في اللغة العربية والدراسات الإسلامية، درس في بعض الجامعات الألمانية وفي الهند، ترك مؤلفات ذات شهرة واسعة نذكر منها: العربية دراسات اللغة واللهجات والأساليب/ دور الرواية والرواة في الإسلام/ الدراسات العربية في أوروبا.

انظر: ميشال جحا/ الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا/ ص213 ـ 214.

والمسلمين، وساهمت أيضاً في تسريب الفكر الاستشراقي إلى هذه المؤسسات، ولعله من الجدير بالملاحظة والانتباه المسوغ الذي أباح لهؤلاء المستشرقين الدخول إلى المجامع اللغوية كأعضاء فاعلين فيها، هل هو ضلوعهم في اللغة العربية بصورة تفوق العرب أنفسهم؟ أو هو كثرة نتاجهم اللغوي المثمر الذي أفاد العرب وقراء العربية بالجديد الذي لم يكن قد اكتشف من قبل؟ أو هو التعلق بالنهج الغربي الفكري الجديد الذي أشار إليه طه حسين، ومحاولة الاستفادة منه في تحديث هذه المؤسسات؟ أو هو غزو فكري مباشر على أعلى المستويات قام به المستشرقون تحت وطأة إعجاب وانبهار الشرقيين بالغرب؟

إن كل هذه الاحتمالات قائمة وممكنة ولا نستطيع ترجيح أحدها، ويبقى الجواب الصحيح لدى المسؤولين عن هذه المؤسسات الذين سمحوا للمستشرقين بالدخول واكتساب شرف العضوية، فهم وحدهم القادرون على ترجيح هذه الأمور، وربما إذا اطلعنا على محاضر ونتائج اجتماعات هذه المؤسسات تبين لنا أن هناك عدم اتفاق على قبول المستشرقين في هذه المجامع، وقد كانت تحدث بين الفينة والأخرى مناقشات حادة حول عضوية هؤلاء، وربما أدت هذه المناقشات في بعض الأحيان إلى إخراج مستشرق أو أكثر من عضوية هذه المجامع، وكمثال على من كان له شرف عضوية المجامع اللغوية العربية نذكر المستشرق هاملتون جب[1] العضو المؤسس في مجمع القاهرة، والدكتور طمسون[2] رئيس المجمع اللبناني العلمي، وكارلو

---

(1) هاملتون جب: SIR HAMILTON GIBB من أشهر المستشرقين البريطانيين ومن مواليد الإسكندرية سنة 1895، اهتم بتاريخ الأدب العربي ودرس في جامعات أوروبية وأمريكية كبيرة، تحصل على عضوية المجمع العلمي بدمشق ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، ترك الكثير من الأعمال المهمة منها: الفتوحات العربية في آسيا الوسطى/ المدخل إلى تاريخ الأدب العربي/ تفسير التاريخ الإسلامي/ المجتمع الإسلامي والغرب/ الخ... انظر: ميشال جحا (الدراسات العربية) ص51 وما بعدها.

(2) الدكتور طمسون: مستشرق أمريكي ترأس المجمع اللبناني العلمي سنة 1847.

نللينو الإيطالي عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ولويس ماسينيون الفرنسي عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة أيضاً، وألفريد جيوم[1] عضو المجمع العراقي، وآسين بلاسيوس[2] الأب عضو المجمع السوري، وهؤلاء نماذج فقط لقائمة طويلة من المستشرقين الذين انبثوا في كل المجامع العربية والإسلامية والشرقية عامة، وبعضهم نال عضوية أكثر من مجمع في وقت واحد[3].

منافذ الفكر الاستشراقي إلى عالمنا

بعد هذه الجولة السريعة مع الاستشراق ومؤسساته ووسائله لا بد لنا أن نتساءل كيف تسرب النتاج الاستشراقي إلى مجتمعاتنا وبأي وسيلة كان ذلك؟ وهل أثر هذا التسرب الفكري في إحداث تغيرات في سلوكياتنا ومداركنا؟ والأجابة عن هذه التساؤلات قد تحتاج إلى وقفة طويلة تستلزم مؤلفاً خاصاً بها أو أكثر، وذلك إن التأثير الغربي في مجتمعنا مر بمراحل متعددة وتوجه إلى جوانب كثيرة في حياتنا، وهذا التأثير هو بعينه ما ألفت فيه كتب كثيرة تحت عنوان الغزو الفكري، حيث تحدث الباحثون عن هذه المواضيع

---

(1) الفرد جيوم: ALFRED GUILLAUME مستشرق إنجليزي مشهور تقلد عدداً من المناصب العلمية وعمل في الجيش البريطاني، نال شرف عضوية بعض المجامع العلمية العربية، خلف بعض الأعمال المهمة التي نذكر منها: تأثير اليهودية على الإسلام/ الإسلام/ حياة محمد. الخ. . . انظر: ميشال جحا (الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا) ص48.

(2) آسين بلاسيوس MIGUEL ASIN PALACIOS أحد أهم المستشرقين الإسبان ولد سنة 1871 وتوفي سنة 1944 لقب بزهرة الاستعراب الإسباني، اهتم باللغة العربية وتمكن منها، وتضلع في علوم الدراسات الإسلامية والتاريخ، وبلغت أعماله كماً كبيراً يزيد على مائتين وأربعين عملاً، ومن أهم أعماله هذه: مختارات في الأدب العربي، مفهوم الحشر والنشر الإسلامي في الكوميديا الإلهية لدانتي. الخ. . انظر: د. ميشال جحا. الدراسات العربية. ص138.

(3) لزيادة الإطلاع انظر: نذير حمدان (مستشرقون سياسيون جامعيون مجمعيون).

وقسموها إلى فترة ما قبل الاستعمار الغربي، ثم الفترة المصاحبة للاستعمار وهي الممتدة إلى يومنا هذا[1]. والذي يجب الانتباه إليه أن التأثير والتأثر بين الشعوب والأمم ظاهرة معتادة وليست مستغربة، وهي مرتبطة بعامل القوة فالقوي دائماً هو المؤثر، والمغلوب دائماً هو المتطلع إلى محاكاة الغالب، إضافة إلى أن عامل القوة ينتج عنه التقدم الفكري والمادي ويساهم بشكل أو بآخر في صنع الحضارة، وهذا حال المسلمين بالضبط عندما كانوا أقوياء ومتحدين كانوا هم النموذج الذي يتطلع إليه الآخرون، ويرحلون إلى دياره للاغتراف من علومه ومعارفه، وأثناء ذلك كانوا يتأثرون بصورة أو بأخرى بعاداته وسلوكياته الحياتية، وهكذا كان حال الغربيين زمن ازدهار الحضارة العربية وقد سبق أن أشرت إلى صورة من هذا أثناء الحديث عن تاريخ الاستشراق.

حين تفكك العرب والمسلمون وعمت بينهم الفرقة والضغائن، وطغى عليهم سلطان الشهوات ظهر فيهم الضعف وانحسروا عن ميدان الصراع الحضاري، وكان لابد عندها من ظهور حضارة بديلة تمثلت في الحضارة الغربية، وهنا يدور الزمان بدورته وتظهر القوة لدى الغربيين ويتمكنون من الأرض ويملكون ما لا نملك وينتجون ما لا ننتج، فتتحول بالتالي إلى مغلوبين. وصدق الشاعر العربي حين قال:

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

غير أن الجدير بالملاحظة هنا أن العرب والمسلمين زمن قوتهم لم يقصدوا التأثير في غيرهم ولم يعدوا له عدة، ولم ينشئوا له مؤسسات، بل كان تأثر غيرهم بهم تلقائياً تحكمه عوامل الإعجاب والحاجة بما لدي الغير من إمكانات علمية وتقنية، أما العالم الغربي فقد قصد التأثير ولم يتركه لعامل

(1) انظر في هذا بحثاً بعنوان (من آثار الغزو الفكري لعالمنا المعاصر) محمد فتح الله الزيادي/ مجلة رسالة الجهاد/ عدد (9).

الزمن، وأعد له عدة وأنشأ له مؤسسات كثيرة أهمها الاستشراق الذي نحن بصدده الآن، وتضافرت جهود الغربيين جميعاً على تنفيذ برامج الغزو الفكري للعالم الشرقي عموماً والإسلامي خاصةً من أجل السيطرة على هذا العالم ليظل تابعاً للعالم الغربي في مختلف المجالات.

لقد تكفل المستشرقون من خلال مؤسساتهم بتنفيذ هذا البرنامج، فعملوا على تطبيع العقل الشرقي وتطويعه كلما سنحت لذلك فرصة، وكانت مشروعاتهم تشمل مختلف الفئات وتدخل جميع المجالات، ومن أهم الوسائل التي نفذ منها فكرهم القنوات التالية:

أ ـ الإرساليات الشرقية:

هذه الإرساليات تشبه إلى حد كبير تلك البعثات التي كانت تفد على الأندلس لتلقي العلوم العربية، فالشرقيون تحت شعورهم بالحاجة إلى العلم والمعرفة توجهوا إلى أقطار العالم الغربي طلاباً موفدين إلى الجامعات الغربية في مختلف المجالات، وهؤلاء كانوا مختلفي الأعمار وقليلي الثقافة، ولذلك كانوا الوسيلة الجيدة التي تأثرت بالفكر الاستشراقي سلباً أو إيجاباً، وكان بعضهم حين عودته إلى بلاده خير مُروِّج لهذا الفكر وخير مدافع عنه، ومعظم التيارات الفكرية الوافدة والنظريات الغربية إنما ذاعت في مجتمعنا عن طريق طلابنا العائدين من أوروبا وأمريكا.

وتشمل هذه الإرساليات أيضاً العاملين في الحقل الدبلوماسي في الدول الغربية، وكذلك المهاجرين إلى بلاد الغرب طلباً للعمل والاتجار، فهؤلاء أيضاً كانوا وسيلة نقل جيدة عبر من خلالها الغزو الفكري إلى عالمنا، غير أن هؤلاء نتيجة بعدهم بعض الشيء عن مجالات الفكر والثقافة، اقتصر تأثرهم على النواحي السلوكية والأخلاقية، فشاعت بيننا عن طريقهم كثير مما لم نكن نعرف من عادات اجتماعية أثرت في علاقات الرجل بالمرأة، وعلاقات الآباء

بالأبناء، وغيرها من العلاقات الاجتماعية الأخرى، وعن طريقهم أيضاً انتشرت بيننا عادات استهلاكية كثيرة وطرق تعامل وأنظمة لهو ومفاتن لم نكن على عهد بها.

ب ـ الإرساليات الغربية:

تشمل هذه الإرساليات كل ما احتجنا إلى الاستعانة به من خبرات في مختلف المجالات مثل الخبراء العسكريين، وخبراء النفط، ومستشاري التعليم، وفنيي الصناعات وغيرهم، وتشمل كل ما قدم إلى عالمنا من شركات أجنبية أيا كان نشاطها الذي تزاوله، فهذه الشركات هي مؤسسات غربية تمارس أدواراً متعددة، فإلى جانب عملها المهني تؤدي دوراً استعمارياً وسياسياً وفكرياً، وتشمل الإرساليات الغربية أيضاً البعثات الدبلوماسية الغربية في دول العالم الشرقي وما يتبعها من موظفين وعمال، وأنواع الإرساليات هذه قد حملت معها الكثير مما أثرت به في مجريات الأحداث في حياتنا، وتطلب وجودها بيننا إحضار الكثير من المستلزمات الحياتية التي لم نكن نعرفها، وتطلب التعامل معها نوعاً من العلائق والمعاملات الرسمية وغير الرسمية يختلف كثيراً عما تعودنا عليه من علائق وارتباطات.

وهكذا سار تأثير هذه الإرساليات عبر خيوط مختلفة ليلتقى في النهاية مشكلاً تغييراً جوهرياً في سلوكياتنا ومجريات تفكيرنا، وليساهم بعد ذلك في إحداث جيل لا يقدّر إلا كل غربي، ولا يهوى إلا ماله علاقة بالغرب، وهنا قد يقول قائل لماذا لم نحدث تأثيراً في مجتمعاتهم بإرسالياتنا كما فعلوا؟ وهنا أعود لأذكر بعامل القوة والغلبة الذي أشرت إليه في صفحات قليلة ماضية.

ج ـ المؤسسات التنصيرية:

لا يوجد مكان في العالم الشرقي إلا غزته الإرساليات التنصيرية، وأقامت فيه مؤسسات طبية وتعليمية متعددة، وهذه بدون شك كانت مراكز

علنية تستغل حاجة الإنسان لإحداث التغيير العقائدي الذي هو وسيلة لإحداث بقية التغييرات في شخصية الإنسان الشرقي، لقد لعبت الإرساليات التنصيرية أدواراً رئيسة في التسلل إلى مؤسساتنا التعليمية في شكل مستشارين تربويين أو مخططي مناهج أو موجهين أو غير ذلك، وقامت بدور كبير أيضاً في التأثير في سياسات الكثير من الدول وخاصة الفقيرة منها، واستطاعت الدخول إلى المجال الإعلامي بما أنشأته من إذاعات وصحف، وكل ذلك ساهم بدور فعال في إنجاح برامج الغزو الفكري للعالم الشرقي، واستطاع المنصّرون من خلال أساتذتهم المستشرقين أن يلونوا الحياة الشرقية بكل ما يريدون، لتكون المحصلة في النهاية التغريب بكل صوره وأشكاله أو الاستغراب بمعناه السلبي فقط[1].

موقف المشارقة من الاستشراق

انقسمت نظرة المشارقة، وخاصة المسلمين منهم، تجاه الاستشراق إلى وجهات متعددة تحكمت فيها عوامل متباينة واتجاهات مختلفة، ويمكن إجمال المواقف الشرقية تجاه الاستشراق في النقاط التالية:

1 ـ موقف العدائية والحذر:

ومحتوى هذا الموقف يكمن في أن ما يصدر عن الغرب هو في موقع الصراع الديني والعرقي، فالمستشرقون لا يمكن/ حسب تصور هؤلاء/ أن يكونوا منصفين لأنهم يخرجون من مجتمع معاد للإسلام والمسلمين، مجتمع له مصالحه في ديار الإسلام، ولذلك فإن نتاجهم الثقافي لا يمكن أن يكون إلا خادماً لهذه المصالح مؤكداً على حتمية الصراع، ومن هنا جاءت العدائية

(1) انظر في مثل ما تقدم: الإسلام والحضارة الغربية/ د. محمد محمد حسين/ الغزو الفكري/ د. عبد الستار فتح الله/ الغارة على العالم الإسلامي ترجمة محب الدين الخطيب الاستشراق/ إدوارد سعيد/ الفكر الإسلامي المعاصر/ غازي التوبة/ وعود الإسلام/ روجيه غارودي.

المطلقة لكل نتاج استشراقي، فالتوجس والريبة والشك والخوف هي أساليب التعامل مع هذا النتاج، وفي اعتقادنا أن هذا الموقف على الرغم من عدم موافقتنا الكاملة عليه إلا أنه تدعمه مسببات متعددة أهمها:

1 ـ روح الكراهية التي سببتها الصراعات الدينية والسياسية التي مر بها التاريخ الإسلامي والموقف الغربي منه، فهذه الصراعات كانت سبباً في تأسيس روح الكراهية لكل ما هو غربي عند كل مسلم، ولما كان الاستشراق جزءاً من هذا الكيان المسمى «غرب» فإن حساسية الماضي تقف وراء كل نظرة غير علمية له.

2 ـ الدور الاستعماري لحركة الاستشراق: وهو الدور الذي قام به المستشرقون فعلاً أثناء الحملات الأوروبية على ديار الشرق، حيث ثبت تاريخياً أنهم ساعدوا المستعمرين ومهدوا لحملاتهم تجاه الشرق، وهذا بالطبع كان له أثره الكبير في تكوين هذا الموقف العدائي، فقد اعتبر الاستشراق طرفاً في الصراع وكان الأجدى أن يعتبر في موقف الحياد على الأقل.

3 ـ اقتران الاستشراق بالتنصير، فالمؤسسة المسيحية بإرسالياتها المتنوعة استعانت كثيراً بالاستشراق في تكوين الكوادر التنصيرية ومدها بالمعلومات المختلفة حول العالم الإسلامي، هذه المعلومات التي هي بالطبع ستستخدم في تنصير المسلمين وإفساد عقيدتهم، وهذا بكل تأكيد أثر في موقف المشارقة ودفعهم إلى معاداة الاستشراق والحذر منه.

4 ـ التزييف العلمي الذي مارسه الاستشراق في حالات عديدة، وهو كما نعلم تمثل في ذلك النوع من الإنتاج الاستشراقي المزيف للتاريخ الإسلامي والمشوه للحقيقة الدينية عند المسلمين، فالكتابات الاستشراقية الكثيرة التي على هذه الشاكلة كانت سبباً في إذكاء روح العدائية عند الشرقيين تجاه الاستشراق.

وليس هذا الموقف بصحيح على إطلاقه، فعلى الرغم من وجود ما يبرره من الأسباب سالفة الذكر إلا أنه يعتبر غير علمي وغير دقيق، وذلك لأنه في موجة هذه العدائية تتناسى جهود بعض المستشرقين المنصفين للإسلام والمسلمين، وتتناسى جهود نفر آخر عرفوا بالإنصاف العلمي وتتبع الحقيقة العلمية دون اقترانها بالدين ودون تأثر بثقافات مجتمعاتهم، وتتناسى أيضاً جهود بعضهم ممن كانت له عناية بالتراث الإسلامي حفظاً ونشراً وتحقيقاً وترجمة رغم ما يقال عن دواعي وأسباب ذلك، فتناسي مثل هذه الجهود يعتبر ظلماً لجزء من حركة الاستشراق لا زال يفرض نفسه إلى الآن، ولذلك فإن هذا الموقف العدائي لا يمثل كل الشرقيين، بل هو أقرب إلى تمثيل أولئك الباحثين والمفكرين التقليديين الذين انطلقوا من مؤسسات دينية، ولم ينفتحوا على ثقافات الآخرين، ولم يطلعوا على كل النتاج الاستشراقي لانعدام وسيلة الاطلاع عليه وهي اللغة، وربما تشكل الحساسية الدينية أبرز العوامل في تأجيج روح العداوة هذه، على الرغم من أن عداوة الاستشراق قد تأتي حتى من تلاميذه، كما هو الحال عند إدوارد سعيد، إلا أن ما نقصده هنا هو سيطرة الدوافع الدينية على البعض لدرجة لا تتاح معها الفرصة لظهور النتاج الاستشراقي الجيد.

وإذا كانت هذه النظرة العدائية قد انطلقت قديماً واستمرت تحت تأثير حساسية دينية، فإننا نجدها تتجدد في عالمنا المعاصر، ولكن تحت تأثير جوانب سياسية واستعمارية، فالدراسات المعاصرة تتكاتف من أجل إبراز الدور الاستعماري القديم والمعاصر لحركة الاستشراق، بحيث تكاد هذه النظرة المعاصرة تحصر الدراسات الاستشراقية في ثوب الخادم المطيع لكل النوايا والميول الاستعمارية أيا كان مصدرها، ويقف وراء هذه النظرة في العصر الحديث إدوارد سعيد وكتاباه: الاستشراق، وتغطية الإسلام، اللذان كشف فيهما الكثير من الأدوار الاستعمارية للاستشراق منذ عهد دي ساسي وإلى يومنا هذا، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية.

2 ـ الموقف المعتدل:

وهو الموقف الذي يرى الاستشراق من **زاوية** التبادل المعرفي والثقافي بين الشعوب، وعلى الرغم من تأثر أصحاب هذا الرأي بالجانب الديني، ومعرفتهم بالدور الاستعماري الذي عليه الحركة الاستشراقية إلا أنهم لا يعارضون الاستشراق، وينطلق شكرهم للاستشراق من هذه الزاوية، كما أنهم ينبهون إلى كل المنافذ التي ينطلق منها الاستشراق في سبيل تحقيق أهداف شخصية واجتماعية بعيداً عن الحقيقة العلمية، ومن رواد هذا الموقف المرحومان عباس العقاد ومالك بن نبي، ولعل سبب تعقل أصحاب هذا الموقف والتزامهم جانب الموضوعية والعلمية ما يلي:

أ ـ الانفتاح الثقافي والمعرفي على نتاج الكثير من الشعوب والأمم، وهو أمر له أهميته في تكوين الاتجاهات الفكرية، فمعرفة أصحاب هذا الاتجاه بلغات الشعوب الأوروبية هو الذي دفعهم إلى التعرف على قدر كبير من نتاج المستشرقين ومن ثم إعطاؤه حقه دون تجن، والرد على سقطاته بكل علمية وموضوعية.

ب ـ الاتجاه العقلاني الذي عليه أصحاب هذا الموقف حيث لم تتمكن منهم العواطف لتسيرهم في مسارات قد لا تكون علمية؛ حيث إنهم على استعداد لقبول الحقيقة العلمية من أي مصدر كانت، فهم يقبلون الكثير من الحقائق التي يقول بها المستشرقون في إطار علمي، ويرون عدم تعارضها مع معتقداتهم الدينية، لأن الإسلام في حد ذاته يعتبر حقيقة علمية، وكل ما جاء به إنما هو تأكيد للحقيقة العلمية، ولذلك فالحساسية الدينية غير واردة عند هؤلاء بقدر ما تبرز الحساسية العلمية عندهم بشكل واضح.

كيف يمكن بناء موقف علمي من الاستشراق

أولاً:

لا بد من الاعتراف بوجود الاستشراق وإعطائه أهمية قصوى لأنه:

أ ـ يدرسنا ويدرس قضايانا المختلفة دون أن يكون لنا رأي في كيفية الدراسة.

ب ـ أنه يؤثر في مجمل أفكارنا ويشكل جزءاً من سلوكنا ويؤثر في بناء تنظيماتنا المختلفة.

ج ـ أنه يقدمنا للعالم الآخر بالطريقة التي يريدها وبالوسائل التي يختارها.

د ـ أنه يساهم في مسيرة الفكر الإنساني من مختلف الزوايا التاريخية والعقدية والاجتماعية وغيرها.

هـ ـ أنه يحاول أن يتسلط علينا وأن يحرمنا الحرية من خلال منظوماته الفكرية المختلفة.

ثانيا:

مثل هذا الطرف الذي يؤثر فينا بالشكل الذي رسمناه لا يمكن تجاهله وغض الطرف عنه بأن نعتبره غير جدير بالاهتمام، وأنه ظاهرة عادية لا تعدو أن تكون زوبعة في فنجان، كما أنه لا يمكن اعتباره ظاهرة صحية من قبيل التدافع الحضاري والتبادل المعرفي والثقافي، ولذلك فلا سبيل إلا بمواجهته والتعامل معه بنفس الجدية ونفس الاهتمام، ولكن بطريقة علمية صحيحة خالية من العقد النفسية والشوائب الفكرية والتأثيرات الخارجية المختلفة، هذه الطريقة أو هذا الموقف يمكن رسم معالمه في الآتي:

1 ـ لا أفضل على الإطلاق أن نظل لاهثين وراء ما ينتجه الفكر الاستشراقي محاولين تتبع ما يصدر عنه ومناقشته والرد عليه جزئية جزئية، فذلك

على الرغم من أهميته، إلا أنه يتطلب رجالاً أكفاء يستطيعون هضم الآخر والتعرف عليه ثم مناقشته بنفس الأسلوب وبنفس الوسائل، ولكن الذي أفضله أن نحصر نتاج الفكر الاستشراقي في مجموعة قضايا رئيسية نحاول أن نعرضها عرضاً سليماً بمنطق عصري يستفيد منه شبابنا، ثم نترجمه إلى لغات مختلفة ليتعرف عليه الآخرون، ولندع بعد ذلك الأفكار تتصارع، والأقرب إلى المنطق والعقل والواقع هو الذي سيحظى بقبول ذوي العقول السليمة، وبذلك نكون قد عززنا الحرية الفكرية التي يدعو إليها ديننا، والتي هي حاجة بشرية لا غنى عنها، كما أننا بذلك نخرج عمّا نرمى به دائماً من تعصب وضيق أفق.

2 ـ لا بد أن يسبق هذه الخطوة تعرف على ما ينتجه الطرف الآخر فلا حوار ولا نقاش ينطلق من جهل، وأخطاؤنا الماضية في مواجهة الفكر الاستشراقي نابعة من عدم تعرفنا عليه تعرفاً صحيحاً، وهذا هو سبب وقوعنا في التعميم وفي الأحكام المتسرعة التي لا تخدم قضيتنا بقدر ما تضر بها.

3 ـ يرى المستشرقون أنهم أصحاب منهج علمي، والمستغربون يؤكدون هذا، ولذلك فلا مناص من أن نستخدم نفس المنهج في حواراتنا دون أن نتأثر باختلاف العقائد، ودون أن نتشنج لمجرد أن الاستشراق يقوم بأدوار أُخرى لها علاقة بتخلفنا، بل يجب أن نستخدم المنهج العلمي الصحيح لإثبات هذه الأدوار لسحب البساط العلمي الذي يدعيه.

4 ـ لا يمكن أن يكون لنا موقف علمي إلا بالتأكيد على الترجمة من وإلى الطرف الآخر، فهذه وحدها الكفيلة بأن تعرفنا به وأن تعرفه بنا، وهذا بالطبع وسيلة لتقريب الهوة ووسيلة للمواجهة.

الاستشراق
من خلال بيئاته ومناهجه

مدارس الاستشراق

الافتراض المبدئي هو أن الاستشراق يغلب عليه أن يكون ذا طابع واحد وخصائص مشتركة مهما اختلفت البيئات الأوروبية وتعددت، فما تناولناه عن الأهداف والدوافع والوسائل يمكن أن يصدق على كل المستشرقين أينما وجدوا، وذلك أن هذه الظاهرة هي في الغالب مؤسسة غربية ذات طابع تكاملي تتفق فروعها في مجالات متعددة وإن اختلفت في بعض الاهتمامات أو الميول، وهذا الأمر هو الذي دعانا إلى محاولة تحقيقه علمياً لنتبين ما إذا كان اختلاف البيئات الأوروبية مؤثراً في صبغ الاستشراق فيها بلون معين قد يختلف كثيراً عن البيئة الأُخرى.

والحقيقة أن هذا الموضع يعتبر بالغ التعقيد نظراً لقلة المصادر التي تناولته، وحتى الذين أرخوا للاستشراق لم يتطرقوا إليه، بل انصب اهتمامهم على تناول أبحاث المستشرقين نقداً أو تحليلاً أو إعجاباً، اللهم إلا ما فعله (الهراوي) الذي قسم المستشرقين إلى مدارس ثلاث:

1 ـ مدرسة تختص بمباحث القرآن الكريم.

2 ـ مدرسة تتعلق بسيدنا محمد ﷺ.

3 ـ مدرسة تختص بالتاريخ العربي والإسلامي.

وهذا التقسيم لا يمكن الاعتماد عليه؛ لأنه يتعامل مع الاستشراق على أنه يهتم فقط بما يتعلق بالإسلام والمسلمين دون غيرهم، وهذا أمر لا يمكن التسليم به، لأن الاستشراق مجال أوسع يشمل الاهتمام بالشرق عموماً سواء أكان إسلاماً أم غيره وسواء أكان ديناً أم لغة أم أي أمر آخر[1].

وممن اهتموا بهذا الموضوع أيضاً نجيب العقيقي الذي عقد فصلاً خاصاً به في كتابه (المستشرقون) في طبعته الأولى، واهتم في هذا الفصل بتوزيع الاستشراق إلى مدرستين هما:

1 ـ المدرسة السياسية التي تبحث في الأدب بمفهومه العام.

2 ـ المدرسة الأثرية التي تهتم بالآثار.

وعلى الرغم من تقسيمه هذا إلا أنه خصص بقية كتابه الكبير لدراسة المستشرقين على أساس التقسيم الجغرافي، ومع ذلك فإنه لم يتطرق إلى خصائص ومميزات كل بيئة، بل ركز اهتمامه على ذكر أعلام المستشرقين وما خلفوه من آثار، بحيث أصبح الكتاب عبارة عن فهرس شامل لكثير من الأعلام الذين برزوا في ميدان الاستشراق، ويبدو أن العقيقي اقتنع بالتوزيع الجغرافي وعدل عن تقسيمه الأول بحيث خرج كتابه في طبعته الجديدة دون أن يحوي فصلاً خاصاً عن مدارس الاستشراق[2].

وفي هذا الإطار يبرز أيضاً اسم يوسف داغر في كتابه (مصادر الدراسة الأدبية) الذي أسهب في الحديث عن هذا الموضوع متخذاً التوزيع الجغرافي أساساً للتقسيم ومركزاً على ذكر خصائص ومميزات كل مدرسة، ولكن الذي يؤخذ عليه أنه بالغ في إضفاء صفة العلمية والموضوعية والمنهجية على بعض المدارس، فهو يقول مثلاً عن المدرسة الفرنسية: (إنها تتميز بالوضوح في الإفصاح، والجلاء في التعبير، والدقة في البحث)، وصاحبها على الدوام

(1) أحمد سمايلوفتش/ فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي/ ص/ 219.

(2) المصدر السابق نفسه/ ص/ 222/ وانظر/ كتاب (المستشرقون) نفسه.

يحاول أن يعطيك عن الموضوع الذي يبحث فيه أصدق صورة مجلوّة بعبارة ناصعة واضحة لا يواجهها لبس أو غموض[1].

ولا اعتقد أن أحداً درس الاستشراق وتعرف على بعض أبحاثه يمكن أن يسلم بهذه الأوصاف التي ذكرها خاصة عندما عدد خصائص المدارس التي ذكرها، فهو يقول: (إنها ـ أي الخصائص ـ علمية مطلقة مع كل ما للعلم الحديث من مقتضيات وموجبات... نقدية محللة ناخلة مغربلة تتجلى فيها روح النقد العلمي المقارن دون مراعاة أو محاباة لأي عامل من عوامل الأثر والغرض، نموذجية قياسية بمعنى أن المستشرق يتناول بحثه على وجه من منطلق العلم ووجه البحث في الطريقة والسياقة والاستطراد والتوسع والغرض والبسط بحيث تتضح أمامك المعالم وتستبين الأهداف... موسوعية أو جامعية، بحيث إنه إذا تناول مستشرق موضوعاً ما استفرغ منه المناحي واستظهر منه الخوافي فلا يدع مزيداً لمستشرق، كل هذا في وضوح وجلاء ونقاء ونصاعة[2]).

هذه هي المحاولات السابقة في هذا الموضوع ـ فيما وصلني ـ أضيف إليها ما ذكره الدكتور المرحوم أحمد سمايلوفتش الذي عدد التقسيمات السابقة، ولعله اقتنع بها حيث أضاف إليها المدرسة اليوغسلافية باعتباره أحد أفرادها فهو أصدق من يعبر عنها.

أعود للتأكيد على ما ذكرته في بداية هذا الموضوع من صعوبة البحث فيه، ذلك أنه يبدو من المستحيل تصنيف هذا العدد الهائل من المستشرقين في مدارس ذات خصائص محددة، حيث إنهم يمثلون جنسيات مختلفة، ويتكلمون لغات متعددة، ويسيرون في اتجاهات متنوعة، وينطلقون من أهداف متقاربة. ولا بد لكل من أراد الخوض في هذا الموضوع خاصة

---

(1) يوسف داغر/ مصادر الدراسة الأدبية/ ج2/ ص776.

(2) يوسف داغر/ مصادر الدراسة الأدبية/ المطبعة المخلصية/ بيروت/ 1961/ ج2/ ص774 ـ 775.

وميدان الاستشراق عامة أن يلم بأطراف كل هذه الاختلافات، وهذا على ما يبدو أمرٌ مستحيلٌ، ولكن مع استحالته هذه فإنه من الممكن الالتجاء إلى التوزيع الجغرافي كأساس للتصنيف انطلاقاً من أن البيئة بما لها من خصائص ـ إيجابية كانت أو سلبية ـ ذات أثر كبير في تكوين شخصية الكاتب وتوجيه أفكاره، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن بعض البيئات الأوروبية خضعت لتأثيرات اقتصادية واستعمارية كبيرة في علاقاتها مع دول الشرق عموماً.

واعتماداً على ماسبق فإنه يمكن توزيع الاستشراق إلى مجموعة مدارس رئيسة مع الإشارة إلى كل مدرسة بملامح ومميزات غالبة وليست قطعية، بمعنى أن أي صفة أذكرها لمدرسة من المدارس إنما تصدق عليها بنسبة كبيرة وليست شاملة أو قطعية.

المدرسة البريطانية

الصلات بالشرق:

تعتبر صلات الإنجليز بالشرق قديمة جداً ترجع إلى سنوات ما قبل الإسلام، حيث يذكر البعض أن علاقات قامت بين إيرلندا والشرق منذ منتصف القرن الثالث للميلاد، وذلك حين ذهب بعض الرحالة الرهبان إلى مصر وسوريا وفلسطين في طريقهم إلى الأراضي المقدسة، ورغم وجود هذه الرحلات المبكرة جداً إلا أنه لم تظهر كتابات الإنجليز حول الشرق إلا في القرن الأول للهجرة عندما كتب ويلبلاد[1] حول رحلته إلى البلاد العربية ثم تبعه بقية الحجاج التجار وغيرهم[2].

---

(1) ويلبلاد (WILIBOLD) رحالة بريطاني قديم تعتبره المصادر أول من كتب واصفاً رحلاته إلى البلاد العربية، وكان ذلك في القرن الأول للهجرة، تتابع بعدها الرحالة والمستشرقون في الكتابات حول العروبة والإسلام.

(2) د. ميشال جحا/ الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا. ص/27.

وهناك بعض الملامح للاستشراق البريطاني نجملها في الآتي:

1 ـ انطلق الاستشراق البريطاني من دوافع ذاتية تمثلت في اتصال العلماء البريطانيين بالأندلس وصقلية لتعلُّم اللغة العربية، والاطلاع على الفلسفة اليونانية من خلال ما ترجم منها إلى العربية، ثم تطورت هذه الدوافع بعد ذلك إلى دوافع دينية كان الهدف منها تنشيط حركة الإرساليات التنصيرية بتعلُّم اللغة العربية وبعض العلوم الدينية. وأخيراً تبرز في الاستشراق البريطاني الدوافع الاستعمارية التي ظهرت أثناء اتصال الإنجليز بالشرق غازين محتلين.

2 ـ لعب الهدفان التنصيري والاستعماري دوراً بارزاً في مسيرة الاستشراق البريطاني.

3 ـ ركز دراساته على اللغة العربية وما يتصل بها من أدب وبلاغة ونقد وغيرها من العلوم الأُخرى التي لها علاقة بها.

4 ـ تركزت أبحاثه واهتماماته حول الهند ومصر وبعض بلاد الشام.

5 ـ تعتبر جامعتا كامبردج وأكسفورد أهم مكانين نشأ وترعرع فيهما الاستشراق البريطاني.

6 ـ انخرط بعض المستشرقين الإنجليز في السلك العسكري والدبلوماسي وعملوا ضباطاً أو مستشارين في وزارتي الخارجية والمستعمرات البريطانية، من هؤلاء ريتشاد بورتون[1] وواطسون[2] ونورمان دانييل وغيرهم.

---

(1) رتشارد بورتون Richard Burton مستشرق إنجليزي ذائع الصيت ولد سنة 1821 وتوفي سنة 1890/ درس في أكسفورد وخدم في الجيش البريطاني في الهند، رحل إلى كثير من البلاد العربية حتى وصل إلى دخول الأماكن المقدسة لقب بالحاج عبد الله، وعمل قنصلاً لبريطانيا في الشام، له: ترجمة لألف ليلة وليلة، وضع كتاباً في وصف رحلته إلى سوريا، وضع ثلاثة كتب في وصف رحلته إلى مكة. انظر: د. ميشال جحا (الدراسات العربية) ص/ 39.

(2) تشارلز مور واطسن Sir Charles Moore Watson مستشرق إنجليزي ولد سنة 1844، تخرج في

7 ـ أثر اكتشاف النفط في بعض البلاد الشرقية في ازدياد الاهتمام البريطاني بالعالم الشرقي، وبالتالي ازدياد المعاهد والمؤسسات التي تعنى بتعلُّم ودراسة اللغات الشرقية وعلى رأسها اللغة العربية.

8 ـ وصل عدد من أفراده بطريقة أو بأُخرى إلى المجامع اللغوية العربية، كأعضاء فاعلين فيها ومن هؤلاء مرجليوت ونيكلسون[1] والفريد غليوم.

9 ـ زاد اهتمامه في القرون الأخيرة بالدراسات الإسلامية في مختلف مجالاتها.

10 ـ قامت الكثير من الجامعات البريطانية أخيراً بفتح كراسي الدراسات الشرقية، وزاد عدد المعاهد والمؤسسات التي تعنى بدراسة اللغة العربية، إلى جانب الازدياد الملحوظ في عدد المكتبات والمطابع التي تهتم بطبع وبيع واقتناء ما يتعلق بالدراسات الشرقية[2].

المدرسة الألمانية

الصلات بالشرق:

ترجع صلة الألمان بالشرق إلى القرن العاشر الميلادي، وذلك عندما

جامعة دبلن وتمكن في العلوم اللغوية وخاصة علوم العربية، رحل كثيراً إلى البلاد العربية، عمل في الجيشين المصري والبريطاني، لقب بواطسن باشا نتيجة ما أسداه للدراسات الشرقية. انظر: ميشال جحا (الدراسات العربية) ص40.

(1) نيكلسون Reynold Alleyne Nicholson من أشهر المستشرقين الإنجليز ولد سنة 1868 وتوفي سنة 1915 وهو من رواد المستشرقين الذين اهتموا بالتصوف الإسلامي، كان غزير الإنتاج في مجالات التصوف والأدب، من مؤلفاته: نشر وترجمة وشرح ديوان جلال الدين الرومي/ تاريخ الأدب العربي/ الصوفية في الإسلام/ فكرة الشخصية في التصوف. الخ... انظر/ د. بدوي/ (موسوعة المستشرقين) ص/ 415.

(2) د. ميشال جحا/ (الدراسات العربية).

أرسل الإمبراطور الألماني (أوتو) كاهناً يدعى (يوحنا) سفيراً لدى الخليفة الناصر، وكان ذلك في سنة 956، وأرسل الخليفة الناصر بدوره أحد القساوسة من رعاياه سفيراً عند الإمبراطور الألماني[1].

أما أول من عني من الألمان بتدريس اللغة العربية فكان المستشرق كرستمنا (1554 ـ 1613) وذلك عندما وضع كتاباً لتعليم الحروف العربية وكيفية كتابتها[2].

ثم تتابع بعدها المستشرقون الألمان في الاهتمام بالدراسات العربية والإسلامية.

وهناك نقطتان جديرتان بالاهتمام يثيرهما كثير من الباحثين الذين تعرضوا لدراسة الاستشراق الألماني وهما:

1 ـ أن الألمان لم يكن لهم مستعمرات في البلاد العربية، ولذلك نجا مستشرقوهم من الخضوع للسياسة.

2 ـ أن الألمان لم يحاولوا التنصير، ولذلك نجا مستشرقوهم من العبث بالتاريخ الإسلامي.

وهاتان النقطتان تستحقان التوقف قليلاً لاعتقادي أنهما لا تستندان على أساس علمي. فالأولى يمكن أن يسلم فيها الشق الأول إذا أخذنا الاستشراق بمفهوم عام، وهو كل إنسان غير مسلم درس الإسلام وتخصص في أحد فروع علومه، وتعرض لمفاهيمه بالدس والتشويه، أما إذا أخذنا الاستشراق كمفهوم أكاديمي وهو كل غربي اهتم بدراسة تتعلق بالشرق، فإن هذا الشق أيضاً لا يمكن التسليم به باعتبار أن الألمان كانت لهم أيضاً مستعمرات في الشرق وكانت لهم أطماع مختلفة فيه، فقد كانوا يستعمرون مناطق واسعة في إفريقيا وبعض المناطق في آسيا.

---

(1) د. ميشال جحا / الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا/ ص75.

(2) صلاح الدين المنجد / المستشرقون الألمان/ دار الكتاب الجديد/ بيروت 1982 ص7.

أما الشق الثاني من النقطة الأولى وهو الخضوع للسياسة فإنه يمكن أن يكون صحيحاً فيما يتعلق بالاستشراق الألماني قديماً أما في مراحله الأخيرة فإنه بدون شك خضع بصورة أو بأخرى للسياسة، وهذا غير مستبعد خاصة إذا أخذنا في الاعتبار ظهور النفط في بعض البلاد الشرقية وتطور علاقات ألمانيا مع الشرق إثر ذلك.

أما النقطة الثانية وهي الأهم فإنه يمكن القول إنها غير صحيحة على الإطلاق؛ ذلك لأنها قيلت هكذا دون التعمق في تاريخ ألمانيا وبالأخص حركة الاستشراق فيها. وعلى أية حال فإن الاعتراض واقع عليها للأسباب التالية:

أ ـ ما ثبت ـ بصورة قطعية ـ أن للألمان جميعات تنصيرية، وأنهم يقومون بدعم حركة التنصير مادياً ومعنوياً، وأن أحد أهم مؤتمرات التنصير، وهو ما يسمى بالمؤتمر الاستعماري، قد عقد في ألمانيا، وقد جاء في إحدى الكلمات التي ألقيت فيه: (والمبشرون هم الذين اختصوا وحدهم بالاهتمام بأمر الإسلام والبحث في شؤون مستعمراتنا الألمانية إلى هذه الأيام الأخيرة.، يجب علينا على الرغم من العناية برعاية الإسلام أن نهتم بمقاومة انتشاره في مستعمراتنا على قدر الإمكان)[1].

ب ـ ما تؤكده بعض المصادر من تتلمذ كثير من المستشرقين الألمان الرواد على أيدي مستشرقين فرنسيين وبالأخص (دي ساسي)[2]، وهو شخصية يعرف الكثيرون دورها في المجال الديني.

ج ـ ما جاء في محاضرة عن الاستشراق الألماني لمستشرقة ألمانية قالت

---

(1) عبد الرحمن الميداني / أجنحة المكر الثلاثة/ دار القلم/ ص50 وما بعدها.

(2) دي ساسي Sacy S. De هو عميد المستشرقين الفرنسيين عاش في الفترة من 1758ـ1838، تعلم الكثير من اللغات، وشغل العديد من المناصب العلمية، وتتلمذ على يديه الكثير من أعلام الاستشراق وخاصة الألمان، له دور في النشاط السياسي المتعلق بالشرق، للمزيد انظر د. عبد الرحمن بدوي/ موسوعة المستشرقين ص226.

فيها: (إن الاستشراق الألماني في القرن السابع عشر تحرر من تأثير الدين)[1].

وانطلاقاً من ذلك كله فإني لم أعتبر النقطتين السابقتين من خصائص المدرسة الألمانية رغم اعتبار البعض لهما وذلك للأسباب التي ناقشتها فيما سبق.

بعض ملامح الاستشراق الألماني

1 ـ اتصف المستشرقون الألمان بالتفاني في العمل والصبر والمثابرة، فمنهم من فقد بصره مثل وستنفلد[2]، ومنهم من أفنى عمره باحثاً ومنقباً ودارساً حتى إن يوهان رايسكه سمّي شهيد الأدب العربي.

يقول أحمد أمين: وقد عرف الألمان بدقة البحث والصبر عليه والاستطاعة العجيبة في أن يؤلفوا بين أجزائه المتنافرة وأن يصلوا منها إلى أدق النتائج وأعمقها[3].

2 ـ من أهم مميزاته اهتمامه بالقديم، فالسمة الملاحظة عليه هي التركيز الكبير على نشر التراث الإسلامي بدرجة يستحيل معها ـ كما يقول المنجد ـ أن يخرج مجمع علمي ما أخرجه مستشرق واحد[4].

3 ـ كانت بدايته متأخرة جداً إذا ما قورنت ببدايته في بعض البلاد الأخرى

---

(1) حضرت شخصياً هذه المحاضرة في جامعة الفاتح / كلية التربية بطرابلس وكانت أستاذة زائرة غير أني لا أذكر بالضبط تاريخ هذه المحاضرة ولا اسم هذه المستشرقة.

(2) وستنفلد H. F. Wuestenfeld مستشرق ألماني ذو شهرة واسعة ولد سنة 1808، تخصص في اللغات الشرقية وأتقنها وحاضر فيها وخاصة اللغة العربية، له أعمال كثيرة، جداً من أشهرها: أكاديميات العرب وأساتذتها / تاريخ الأطباء والعلماء العرب/ نشر مخطوطات عديدة من أشهرها: عجائب المخلوقات للقزويني/ الاشتقاق لابن دريد/ السيرة لابن إسحاق. الخ.. انظر: د. بدوي (موسوعة المستشرقين) ص276 وما بعدها.

(3) ميشال جحا / الدراسات العربية في أوروبا/ ص184.

(4) صلاح الدين المنجد / المستشرقون الألمان/ ص8.

ولم يعرف أي نشاط يذكر الاستشراق الألماني في القرن الثامن عشر.

4 ـ اهتم أكثر من غيره بنشر المخطوطات وتحقيقها والأسماء كثيرة جداً في هذا المجال.

5 ـ اهتم الاستشراق الألماني أكثر من غيره بفهرسة المخطوطات العربية والإسلامية، وطال عمل المستشرقين في ذلك، حتى إن بروكلمان مثلاً استغرق نصف قرن في وضع كتابه (تاريخ الأدب العربي)[1].

6 ـ اهتم أكثر من غيره بوضع المعاجم العربية، أو العربية اللاتينية، أو العربية الألمانية، ويبرز في هذا المجال أسماء كثيرة مثل فريتاج[2] ونولدكه[3] وهانزفير[4] وشراجله[5] وغيرهم.

---

(1) ادوارد سعيد / الاستشراق/ ص53.

(2) فرايتاج Freytag Geaorg Wilhelm مستشرق ألماني ذائع الصيت ولد سنة 1788 وتوفي سنة 1861، اهتم بالأدب العربي القديم ونشر منه قصائد كثيرة من أشهرها: قصيدة بانت سعاد، اهتم أيضاً بالتراث العربي ونشره، وله في ذلك باع طويل ومن ضمن ما نشره كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عرب شاه، وكتاب وصف الشام ووصف فلسطين للإدريسي. انظر د. ميشال جحا (الدراسات العربية) ص191.

(3) نولدكه .Noldeke, Th من أكابر المستشرقين الألمان ولد في هامبورج سنة 1836 اهتم باللغات الشرقية عموماً ونبغ في بعضها ومنها العربية، تلقد وظائف علمية كثيرة، ونال جوائز علمية أيضاً، خلف مؤلفات يصعب الإتيان على وصفها ونذكر نتفاً منها وهي: أصل وتركيب سور القرآن / دراسات في قواعد اللغة العربية الفصحى/ كما نشر العديد من الكتب التراثية ومنها: شرح وترجمة ونشر ديوان عروة بن الورد / أسهم في نشر تاريخ البلدان للطبري. الخ.. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج2، ص738.

(4) هانز فير Wehr Hans مستشرق ألماني ولد سنة 1909 / تضلع في اللغة العربية المكتوبة والمحكية وأتقن إلى جانبها لغات شرقية كثيرة، شغل مناصب علمية كثيرة كان آخرها سكرتير جمعية المستشرقين الألمان، ترك أعمالاً محدودة اهتمت بقضايا هامشية نذكر منها قاموسه العربي الألماني الذي جمعه من مصطلحات المجلات والصحف ولم يرجع فيه إلى المعاجم العربية القديمة، بعض الأقاصيص المأخوذة من ألف ليلة وليلة التي جمعها في كتابه الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة. انظر: د. ميشال جحا (الدرامات العربية) ص219.

(5) جوتس شراجله Schregle. Gotz مستشرق ألماني ولد سنة 1923، أنهى تخصصه في الدراسات العربية من جامعة أرلنجن سنة 1960، له عدد محدود من الأعمال. انظر: د. ميشال جحا (الدراسات العربية) ص 228.

7 ـ قام بعض أعضائه بالتدريس في بعض الجامعات العربية وخاصة في مصر، ومن هؤلاء ليتمان[1] وبرجستراسر[2] وكراوس[3] وشاده[4].

8 ـ وصل بعض أعضائه إلى عضوية المجامع اللغوية العربية.

9 ـ اهتم بالبحث عن الآثار والتنقيب عنها، وأنشأ لذلك معاهد في بعض البلاد العربية وخاصة بيروت والقاهرة وبغداد.

10 ـ كان الحماس الذاتي طابعاً مميزاً لبعض المستشرقين الألمان، وخاصة

---

(1) أنو ليتمان Littmann, Enno من كبار المستشرقين الألمان ولد سنة 1875 وتوفي سنة 1958، درس على المستشرق الكبير نولدكه وتزوج حفيدته، تخصص في الآثار واهتم باللغات الشرقية ودرسها لمدة طويلة، كما رحل إلى بلاد كثيرة وعين في مناصب متعددة، نال شرف عضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة، أول من ترأس جمعية المستشرقين الألمان ـ ترك عدداً كبيراً من الأعمال أهمها ترجمته المهمة لكتاب ألف ليلة وليلة إلى الألمانية. انظر: د. ميشال جحا (الدراسات العربية) ص207.

(2) جوتهلف برجستراسر Bergstrasser Gotthelf من مشاهير المستشرقين الألمان ولد سنة 1886 وتوفي سنة 1933، اهتم باللغة العربية والدراسات الإسلامية وأبدع في ملاحقة نفائس التراث الإسلامي، ونذكر في هذا المجال مشروعه الكبير في جمع مخطوطات علوم القرآن الذي لم يتمه وأكمله بعد وفاته تلميذه بريتسل، خلف عدداً من الآثار منها: أطلس اللهجات العربية/ حنين ابن إسحاق ومدرسته/ حروف النفي في القرآن/ معجم قراء القرآن وتراجمهم. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج2، ص747.

(3) كراوس Paul Eliezer Kraus مستشرق ألماني من أصل يهودي ولد في مدينة براغ سنة 1904 وتوفي سنة 1944 درس في الجامعة العبرية في القدس وأتقن اللغة العربية بها، اهتم بتاريخ العلوم عند العرب ودرس في كلية الآداب بالجامعة المصرية، تتبع كثيراً من القضايا المشبوهة، وبحث فيها بغرضية واضحة تبدو من خلال ترجمته، وليس أدل على ذلك من صدور عملين متناقضين حول موضوع واحد هما: تحطيم أسطورة جابر بن حيان، وكتاب آخر بعنوان جابر بن حيان إسهام في تاريخ الأفكار العلمية في الإسلام. دفعه حرصه على خدمة بني عمومته اليهود إلى الوقوع في براثن العصابات الصهيونية مما أدى به إلى الانتحار. انظر: د. بدوي (موسوعة المستشرقين) ص25.

(4) شاده Schaade. A. مستشرق ألماني تخصص في اللغات الشرقية ولد سنة 1883 وتوفي سنة 1952، عمل في الجامعة المصرية ومديراً لدار الكتب المصرية، ترك عدداً من الأعمال منها: ابن زيدون / العربية والسريانية/ أحمد تيمور باشا والنهضة العربية. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج2/ ص755.

القدماء منهم فقد كان بعضهم ينشر النصوص العربية ويطبعها على نفقته على الرغم مما يعانيه من زهد الغربيين فيها، ووصل الحماس ببعضهم أنه أتقن ما يقرب من خمسين لغة ولهجة، وخير مثال على ذلك فريدريش روكرت[1].

11 ـ تتلمذ كثير من مشاهيره على المستشرق الفرنسي ـ دي ساسي ـ ومن هنا يمكن تلمس الأثر الديني الذي طرأ على الاستشراق الألماني.

12 ـ ظل حتى بداية القرن التاسع عشر يهتم بالدراسات اللغوية والأدبية فقط دون غيرها من الدراسات.

13 ـ ابتدأ منذ القرن التاسع عشر في التركيز على الدراسات الإسلامية، وتتابعت منذ ذلك الوقت دراسات الألمان حول الإسلام.

14 ـ اختلف عن غيره من مدارس الاستشراق الأخرى بالتركيز على البلاد العربية والدين الإسلامي دون غيرها من لغات وديانات الشرق الأخرى.

15 ـ أثر ظهور النازية في ألمانيا على حركة الاستشراق فيها، وذلك بهجرة بعض رواده إلى بلاد أخرى مثل شاخت، أو بموت البعض منهم في الحروب، أو بتأثر البعض بما ساد ألمانيا من جو فكري خاص.

16 ـ أثر ظهور النفط في بعض البلاد الشرقية، وازدياد الارتباط التجاري بين ألمانيا وغيرها من البلاد العربية في الانحراف بالاستشراق إلى دراسة اللهجات المحلية والتركيز عليها كوسيلة لتوثيق الصلة مع هذه البلاد.

وأخيراً يذكر إدوارد سعيد أن (ما فعله تراث الاستشراق الألماني هو أنه شذب ونقى وأحكم تقنيات كان مجال تطبيقها نصوصاً وأساطير وأفكاراً

---

(1) فريدريش روكرت Ruchkert Friedrich مستشرق وشاعر ألماني موهوب في تعلم اللغات، قيل إنه كان يلم بحوالي 50 لغة بين قديمة وحديثة، اهتم بالشعر وترجم أشعاراً عربية كثيرة، كما أنه ترجم قسماً من القرآن الكريم، من أعماله: ترجمة مقامات الحريري إلى الألمانية / ترجمة ديوان الحماسة إلى الألمانية، الخ.. انظر: د. ميشال جحا (الدراسات العربية) ص192.

ولغات جمعتها من الشرق، بمعنى حرفي تقريباً، بريطانيا وفرنسا الإمبراطوريتان، لكن ما كان مشتركاً بين الاستشراق الألماني والأنجلو فرنسي والأمريكي فيما بعد هو نمط من السلطة الفكرية على الشرق داخل الثقافة الغربية[1].

المدرسة الإيطالية

الصلات بالشرق:

تعتبر إيطاليا ذات صلة كبيرة بالشرق منذ القدم، ويرجع بعض الباحثين هذه الصلة إلى فترة ما قبل الميلاد، وذلك نظراً لقرب إيطاليا جغرافياً من بعض البلاد العربية وإفريقيا، وعندما فتح العرب صقلية توطدت هذه الصلة بين إيطاليا والعالم الإسلامي ثقافياً، وخاصة في عهد الملك روجار الأول[2] وحفيده فريدريك الثاني[3]، حيث كان بلاطهما كعبة للعلماء والمثقفين من كل البلاد الشرقية، وكان لوجود الفاتيكان في إيطاليا أثر كبير في توطيد الصلة بينها وبين البلاد الشرقية، نظراً لما يوليه الفاتيكان من أهمية كبيرة جداً في التبشير بالدين المسيحي ومحاولة تنصير الشرقيين في كل مكان.

هذا ولم يظهر الاهتمام الرسمي لإيطاليا بالدراسات الشرقية إلا منذ القرن الحادي عشر، عندما بدأت الجامعات الإيطالية في الاهتمام بالدراسات العربية والإسلامية، وابتدأت هذه الدراسات في جامعة نابولي سنة 1076 ثم تبعتها بقية الجامعات الأخرى.

---

(1) ادوارد سعيد / الاستشراق/ ص53.

(2) الكونت روجار الأول 1091 ـ 1101 حكم صقلية وكانت غالبيتها من المسلمين ولكن كان في عموم معاملاته متسامحاً معهم ومحترماً لشعائرهم لدرجة أنه منع ممارسة التنصير بينهم.

(3) فريديريك الثاني صاحب صقلية 1198 ـ 1250 أشهر أباطرة صقلية وأشدهم تعلقاً بالحضارة العربية، شهدت العلوم العربية في عهده تطوراً ملحوظاً سجلته المصادر بالإعجاب والتقدير والاحترام. انظر: د. أمين الطيبي / دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية/ دار اقرأ/ 1990.

بعض ملامح الاستشراق الإيطالي

1 ـ بدأ الاستشراق الإيطالي رحلته بهدف ديني، ويتجلى هذا الهدف في أن معظم مؤسساته قد نشأت بجهود رهبان، ونذكر من هؤلاء البابا غريغوريوس الثالث عشر الذي أنشأ الكلية المارونية في روما سنة 1584م، التي اهتمت بتدريس اللغات الشرقية، وفي سنة 1623 أسس الكردينال دي ميتشي مدرسة اللغات الشرقية في فلورنسا، وأسس بعده الكردينال برومبو مدرسة اللغات الشرقية وهكذا، ثم تطورت أهدافه إلى استعمارية، وذلك عندما أدى دوره في احتلال ليبيا والحبشة والصومال، ومرت به في رحلته أهداف علمية تمثلت في ذهاب الكثير من الإيطاليين إلى مراكز الحضارة الإسلامية طلباً للعلم والمعرفة.

2 ـ كان للفاتيكان /الوصي على الديانة المسيحية/ أثر كبير في ظهور الاستشراق الإيطالي وتطوره.

3 ـ نظراً لغلبة الدافع الديني عليه فقد تركزت دراساته وأبحاثه على الإسلام والمسلمين وخاصة العرب منهم، إلى جانب الاهتمام باللغة العربية وتأليف الكتب فيها وفي بعض لهجاتها.

4 ـ كانت فترة الحكم العربي لصقلية تمثل إغراء كبيراً للمستشرقين الإيطاليين في التخصص في الجوانب الإسلامية والعربية والتركيز عليها، ونظرة على مؤلفات كايتاني وسانتيلانا ونللينو وميكنجلو جويدي[1] وغيرهم تعطي دلالة واضحة على ذلك.

5 ـ تمكن بعض أعضائه من الرحيل إلى المشرق والعيش فيه والتدريس في جامعاته وخاصة مصر، وقد تتلمذ عدد من قادة الفكر العربي عليهم،

---

(1) جويدي Michel Angeol من المستشرقين الإيطاليين البارزين ولد في روما سنة 1886 وتوفي سنة 1946، اهتم بالأدب العربي والدراسات الإسلامية، أكمل بعض مشاريع والده المستشرق الكبير انياتسو جويدي العلمية. انظر: د. ميشال جحا (الدراسات العربية) ص97.

وأذكر منهم على سبيل المثال طه حسين الذي درس على المستشرق نللينو.

6 ـ تمكن بعض المستشرقين الإيطاليين من نيل شرف عضوية أكثر من مجمع علمي في وقت واحد، ومن هؤلاء كارلو نللينو وفرانشيسكو غبريالي[1] وانياتسو جويدي[2] وغيرهم.

7 ـ ساهم بجهد متواضع في نشر التراث الإسلامي والاهتمام به حفظاً وفهرسة وتحقيقاً.

8 ـ تميز الاستشراق الإيطالي عن غيره بوجود الكثير من المستشرقات اللاتي أسهمن بجهد وافر في مجال الدراسات الشرقية، ومن هؤلاء ماريا نللينو[3] واولجابنتو[4] .....

---

(1) فرنشيسكو غبريالي Francesco Gabrieli ابن أحد المستشرقين الإيطاليين الكبار جوزيبي غبريالي، اهتم بالشعر العربي القديم وبالتاريخ العربي، شغل مناصب علمية متعددة منها عضوية المجمع العربي في دمشق والمجمع اللغوي في القاهرة. من مؤلفاته: تاريخ الأدب العربي / عالم الإسلام/ خصائص الحضارة العربية الإسلامية. الخ.. انظر: د. ميشال جحا (الدراسات العربية) ص104.

(2) إنياتسو جويدي Ignazio Guidiأحد أبرز أعلام المستشرقين الإيطاليين ولد بروما سنة 1844 ودرس العربية في جامعاتها، زار عدداً من البلدان العربية وعين أستاذاً للأدب العربي في الجامعة المصرية، أتقن اللغة العربية وحاضر بها وتتلمذ عليه عدد من قادة الفكر العربي في مصر، أتقن عدداً من اللغات وألف بها، نشر عدداً من الأعمال منها قسم من تاريخ الطبري، فهرس العديد من المخطوطات في مكتبه فيتوريو إيمانويل ومكتبة انجليكا أكسندرينا، أشهر كتبه تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام. انظر: د. ميشال جحا (الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا) ص93.

(3) ماريا نللينوا Nallino. Maria ابنة المستشرق الكبير كارلو نللينو وواحدة من أشهر المستشرقات الإيطاليات، ولدت سنة 1908، وتتلمذت على والدها وصحبته في أسفاره واستأنفت نشاطه العلمي بعد وفاته، اختيرت عضواً مراسلاً في المجمع اللغوي في مصر، تركت عدداً من الأعمال منها: مجموعة آثار كارلو نللينو/ الإسلام والأقليات الدينية في الدستور السوري الجديد. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج1 ص397.

(4) أولجابنتو Pinto, Olga مستشرقة إيطالية مغمورة شغلت أمينة المكتبة الوطنية بروما وخلفت عدداً من الآثار العلمية منها: الكتب العربية في مكتبات روما/ المخطوطات العربية غير المفهرسة في المكتبة الوطنية بفلورنسا. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج1/ ص398.

وأنجيلا كوداتزي[1] وبانتا[2] وغيرهن كثير.

9 ـ من مميزاته أيضاً وجود ما يسمى بالوراثة العلمية، ففي مجال الاهتمام بالدراسات الشرقية نجد الأبناء يسيرون على خطى آبائهم ويكملون ما بدأوه ويجمعون ما عملوه، وكمثال على ذلك جويدي وابنه ميكلنجلو وغبريالي وابنه فرنشيسكو ونللينو وابنته ماريا.

10 ـ لا يكاد يوجد له أثر واضح في غير الدائرة العربية، أي إنه لم يهتم بأجزاء الشرق الأخرى وخاصة الشرق الأقصى.

11 ـ اهتم أخيراً بإنشاء كراسي الدراسات الشرقية والمعاهد الشرقية المتخصصة والمجلات والمعارض التي تهتم بالشرق، وكذلك أسس مجموعة من المراكز الثقافية في مجموعة من الدول العربية.

المدرسة الفرنسية

الصلات بالشرق:

ترجع صلة الفرنسيين بالشرق إلى أوائل القرن الثامن عشر الميلادي حينما غزا العرب المقاطعات الفرنسية وازدادت هذه العلاقة وتوطدت بوجود الدول الإسلامية في الأندلس، ثم بحملة نابليون على مصر، وأخيراً باحتلال فرنسا الكثير من البلاد الشرقية.

ويبدو ـ من خلال المراجع التي وقعت تحت يدي ـ أن علاقة فرنسا

---

(1) أنجيلا كوداتزي Codazzi. Angela مستشرقة إيطالية خلفت آثاراً محدودة منها: نشر مخطوط آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان لابن حنين، ورسالة في القياس المسطح لليون الإفريقي. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج1/ ص400.

(2) بانتا Panetta. Ester مستشرقة إيطالية تخصصت في تتبع التراث الليبي وخاصة في مدينة بنغازي، ومن ضمن ما خلفته: تقاليد وعادات شعبية من ليبيا، الأمثال العربية في بنغازي، الملابس الشعبية في بنغازي. الخ. . انظر: العقيقي (المستشرقون) ج1/ ص403.

بالشرق كانت ولا تزال علاقة قائمة على التطاحن وعلى مصالح فرنسا في الشرق وما يعود عليها من جراء تعاملها معه، ولقد تعاظمهم اهتمام الفرنسيين بالشرق منذ أن تعاظم الدور البريطاني في الهند، ذلك الدور الذي ألهب حماس الفرنسيين وجعلهم يبحثون عن دور مماثل في مواقع أخرى من ذلك الشرق المترامي الأطراف، ونتيجة لذلك نمت الدراسات الاستشراقية في فرنسا وتطورت يوماً بعد آخر.

بعض ملامح الاستشراق الفرنسي

1 ـ تتركز دراساته حول ثلاثة محاور وهي:

أ ـ المحور الديني

ب ـ المحور السياسي

ج ـ المحور الاستعماري

2 ـ له أثر كبير في توجيه الاستشراق الألماني والانحراف به نحو منعرجات دينية وسياسية، ويبرز ذلك من خلال تتلمذ الكثير من المستشرقين الألمان على مستشرقين فرنسيين نخص بالذكر منهم فرايتاج وفلوجل[1] وفلايشر[2].

---

(1) فلوجيل Flugel. G أحد المستشرقين الألمان ذوي الشهرة الفائقة، ولد في سكسونيا سنة 1802 وتوفي سنة 1870، اهتم بالعمل مع التراث الإسلامي وخلف فيه أعمالاً عظيمة منها: نشر كتاب كشف الظنون لحاجي خليفة، نجوم الفرقان في أطراف القرآن وهو معجم مشهور، فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية في مكتبة فينا القيصرية. الخ.. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج2/ ص701.

(2) فلايشر Gleischer. H. L.مستشرق ألماني ذائع الصيت عرف بأنه مؤسس الدراسات العربية المنظمة في ألمانيا، ولد سنة 1801 وتوفي سنة 1881، شغل كرسي العربية في جامعة ليبزيج لمدة خمسين عاماً، خلف آثاراً هائلة منها: تاريخ العرب قبل الإسلام، فهرس المخطوطات الشرقية في مكتبة درسدن الوطنية، فهرس المخطوطات الشرقية في مكتبة مجلس الشيوخ. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج2/ ص707.

3 ـ يعتبر معهد اللغات الشرقية الذي أسس سنة 1195م أهم مكان ترعرع فيه الاستشراق الفرنسي.

4 ـ كان لجامعة السوربون ذات الشهرة العالمية أثر واضح في تنشيط الدراسات الشرقية في فرنسا.

5 ـ أسس كثيراً من المعاهد والمدارس والمراكز الثقافية في بلاد الشرق التي كان لها تأثير كبير في فَرْنَسَةِ عدد من هذه البلاد خاصة التي استعمرت من قبل فرنسا.

6 ـ يمتاز الاستشراق بالتخصص، أي إن معظم أفراده تخصص كل منهم في جانب معين من جوانب البحث والدراسة.

7 ـ نشأت معظم الجامعات والمعاهد الفرنسية التي تعنى بالدراسات الشرقية بجهود رهبان وقساوسة وتولى هؤلاء إدارة الأمور فيها.

8 ـ من مميزاته أنه قام بفهرسة الكثير من الكنوز الشرقية من مخطوطات ووثائق وغيرها سواء ما كان منها في فرنسا أو في غيرها من البلاد التي وقعت تحت الاستعمار الفرنسي.

9 ـ اهتم منذ البداية بكل ما يتعلق بالشرق عموماً، ولم يخص الإسلام أو العربية وحدهما أو يركز عليهما.

10 ـ يعتبر المرجع الأوروبي الأول عن الأبحاث والدراسات الخاصة بالطوارق والبربر، وتركز مستعمراته في إفريقيا ساعده على ذلك، واهتمامه بهذا النوع من الدراسات لا يخلو من نوايا استعمارية سيئة.

11 ـ ترك بصماته الواضحة على التعليم في إفريقيا، وخاصة في شمالها، وتم ذلك عن طريق ما أتيح لأعضائه من فرص في التدريس والتوجيه التربوي وتخطيط المناهج وغيرها.

12 ـ اهتم كثيراً بالآثار وتتبعها في مواقعها، وأنشأ لها معاهد ومراكز خاصة.

13 ـ ضم بين صفوفه الكثير من ضباط القوات المسلحة الفرنسية، وأتاح لهم عملهم في المستعمرات الفرنسية النبوغ في ميدان الدراسات الشرقية في مختلف جوانبها، ونذكر من هؤلاء جاكو[1] ومونتان[2] وبرشية[3] وغيرهم.

المدرسة الروسية

الصلات بالشرق:

على الرغم من أن روسيا تعتبر شرقية الملامح اجتماعياً وثقافياً وحضارياً وخاصة القسم الآسيوي منها، إلا أن معظم الباحثين يعتبرونها خلاف ذلك، أي إن لها مستشرقين لا يختلفون كثيراً عن مستشرقي البلاد الأخرى، خاصة إذا اعتبرنا أن الجانب الإلحادي في روسيا يمثل خطورة على الإسلام أكثر من تلك الخطورة التي يمثلها الاستشراق المسيحي، وعلى أساس ذلك اعتبرنا أن الاستشراق الروسي يمثل ملامح خاصة جديرة بأن تضعه أحد المدارس الرئيسة في هذا الميدان.

---

(1) جاكو: Jacquat, Cl أحد ضباط الجيش الفرنسي الذين استشرقوا، خلف دراستين هما: دولة العلويين وأنطاكية مركز سياحة. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج1/ ص242.

(2) مونتان Montagne. R أحد المستشرقين الفرنسيين الذين عملوا في صفوف الجيش الفرنسي ولد سنة 1893 وتوفي سنة 1954، شغل عدداً من المناصب العلمية منها مدير المعهد الفرنسي بدمشق، خلف عدداً لا بأس به من الآثار منها: الشرق والغرب وشمالي إفريقيا/ تنظيم قبائل البربر المستقلة تنظيماً اجتماعياً وسياسياً، حياة البربر السياسية في المغرب. الخ.. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج1/ ص272.

(3) برشية Leon Bercher مستشرق فرنسي ولد سنة 1889 وتوفي سنة 1955، اشتغل في الجيش الفرنسي ثم عين مديراً للدراسات في معهد الدراسات العليا في تونس من أعماله: ترجمة رسالة القيروان /وطوق الحمامة/ والتحفة لابن عاصم. انظر: د. بدوي (موسوعة المستشرقين) ص56.

وترجع صلة الروس بباقي دول الشرق، وبالأخص الدول الإسلامية منها، إلى القرن الثاني عشر، وذلك حين وصف حجاج بيت المقدس رحلاتهم إلى تلك الأماكن، ومن أشهرهم رحلة الأب دانيل (1106 ـ 1108) وقد كتبها بالروسية ثم ترجمت بعد ذلك إلى الفرنسية، ثم توطدت تلك العلاقات باكتساح المغول جزءاً من روسيا وبقائهم هناك فترة تقرب من 240 عاماً، وكانت تلك الفترة كفيلة بصبغ تلك المناطق بالصبغة الشرقية، ولم يظهر الاهتمام العلمي بالشرق إلا في العقود الأولى من القرن التاسع عشر الذي شهد بداية الدراسات العربية المنتظمة، ونشوء المدارس العلمية المتخصصة، وازداد هذا الاهتمام بالشرق ـ خاصة الجزء العربي منه ـ إثر ازدهار العلاقات بين الاتحاد السوفيتي وبعض البلدان العربية التي لا زالت قائمة إلى الآن.

بعض ملامح الاستشراق الروسي

1 ـ ترجع اهتماماته بالدراسات الشرقية إلى فترة قديمة، ولكنها لم تبدأ رسمياً إلا في العقود الأولى للقرن التاسع عشر.

2 ـ بدأ الاستشراق الروسي في الاهتمام باللغات الشرقية قبل الثورة البلشفية، وكان للاستشراق الألماني دور واضح في تكوينه.

3 ـ اهتم كثيراً باللغات دون غيرها من العلوم الأخرى، وخص بالدراسة لغات آسيوية لم يهتم بها الاستشراق الأوروبي كثيراً، وذلك مثل التركية والصينية والمغولية والأرمينية والكردية والفارسية وغيرها.

4 ـ ركز اهتمامه أيضاً على الأدب العربي نثراً وشعراً، ونتج عن ذلك مؤلفات كثيرة بالروسية تناولت أعمال الأدباء العرب والمحدثين، نذكر منهم مائة وأربعة وعشرين كتاباً في ثلاثين لغة من لغات الاتحاد

السوفيتي[1]، ومن أعلام المدرسة الأدبية كرتشوفسكي[2] وكريمسكي[3].

5 ـ كان للوجود الإسلامي في بعض مناطق الاتحاد السوفيتي أثر واضح في مد الاستشراق فيها بمادة سخية للبحث والتحليل، وخاصة ما خلفه من مخطوطات كثيرة بالعربية أو بالروسية لا زالت تكتشف إلى اليوم، وفي هذا المقام يجب أن نذكر أعلام المسلمين في تلك المناطق كالخوارزمي[4] والبيروني[5] وابن سينا[6] والفارابي[7].

6 ـ نظراً لكثرة المخطوطات الإسلامية في روسيا فقد اهتم المستشرقون الروس بفهرستها ووصف كل الآثار القديمة، ومن أبرز المفهرسين

---

(1) نجيب العقيقي / المستشرقون/ ج3 ص222.

(2) كرتشكوفسكي Krackovskijمن أشهر المستشرقين الروس ولد سنة 1883 وتوفي سنة 1951 تعلم عدداً من اللغات الشرقية ومنها العربية، زار عدداً من البلدان العربية، اهتم بالأدب العربي وبأبي العلاء خاصة وله في ذلك كتاب، نشر عدداً كبيراً من المخطوطات العربية من أهمها كتاب (البديع/ لابن المعتز) وكتاب (الاعتبار/ لابن منقذ) من أهم أبحاثه: نشأة وتطور الأدب العربي الحديث، أدب المهاجرين العرب في أمريكا، الكتّاب الروس في الأدب العربي. انظر: د. بدوي (موسوعة المستشرقين) ص321.

(3) كريمسكي Krymsky. A. E مستشرق روسي مشهور ولد في أكرانيا سنة 1871 وتوفي سنة 1941، اهتم باللغة والتاريخ والأديان، وشغل مناصب علمية متعددة أهمها سكرتير مجمع العلوم الأكراني. ترك عدداً من الأعمال منها: العالم الإسلامي ومستقبله /تاريخ الإسلام/ الشاعر الزنديق إبان اللاحقي. الخ. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج3/ ص946.

(4) الخوارزمي: أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي، ولد سنة 935 وتوفي سنة 993. انظر: الأعلام للزركلي/ ج7.

(5) البيروني: محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي، فيلسوف ورياضي ومؤرخ، ولد سنة 975 وتوفي سنة 1048. انظر: الأعلام للزركلي.

(6) ابن سينا: الحسين بن عبد الله بن سينا أبو علي شرف الملك، الفيلسوف الرئيس، ولد سنة 980 وتوفي سنة 1037، انظر: الأعلام للزركلي/ ج2.

(7) الفارابي: محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ أبو نصر، ولد سنة 874 وتوفي سنة 950. انظر: الأعلام للزركلي/ ج7.

إيفانوف[1] وروما سيكفيتش.

7 ـ ظهرت فيها المطابع الشرقية مبكراً ونتج عن ذلك طبع الكثير من نفائس الكتب في مختلف المجالات، ومن أشهرها مطبعة قازان وبطرسبرج.

8 ـ للاستشراق الروسي نشاط واضح في إصدار المجلات الشرقية والمتخصصة، ولا زالت مجموعة منها تصدر إلى الآن، ونذكر من المجلات الاستشراقية الروسية مجلة الرسائل وعلم الإسلام، والآداب العالمية، والحوليات الشرقية.

9 ـ تتلمذ كثير من أعلامه في فرنسا وخاصة على مستشرقها الكبير دي ساسي.

10 ـ ليس له اهتمام واضح بالدراسات الإسلامية إذا ما قورن بغيره من الاستشراق الأوروبي.

11 ـ للاستشراق الروسي مساهمات واضحة في دراسة اللهجات نتج عنها دراسات متعددة في لهجات مختلفة.

12 ـ زاد اهتمامه بالعالم العربي، ووسع من اهتمامه بالدراسات الإسلامية أخيراً، وذلك إثر نشوء العلاقات الوثيقة بين الاتحاد السوفيتي وبعض الأقطار العربية.

13 ـ في علاقاته بالعالم الإسلامي لا تختلف دوافعه وأهدافه عن دوافع وأهداف الاستشراق الأوروبي، خاصة في دراساته المعاصرة عن العالم الإسلامي[2].

---

(1) إيفانوف Ivanow. Wمستشرق روسي تخصص في العقيدة الإسماعيلية واهتم بالمخطوطات، خلّف عدداً كبيراً من الآثار منها: المخطوطات الإسماعيلية في المتحف الآسيوي/ وثائق فارسية جديدة لدراسة الحلاج/ فهرس المؤلفات الإسماعيلية/ المنشورات الشرقية في روسيا. الخ. انظر: العقيقي: /المستشرقون/ ج3/ ص970.

(2) انظر في ذلك أيضاً:

أ ـ د. عبد الرحمن بدوي/ موسوعة المستشرقين.

المدرسة الإسبانية

الصلات بالشرق:

تعتبر إسبانيا أقوى دول أوروبا صلة بالشرق؛ لقربها الجغرافي منه أولاً، ولاحتضانها أروع وأعظم حضارة أسسها العرب خارج ديارهم دامت قرابة خمسة قرون كانت من القوة بحيث تركت آثارها ماثلة في الحياة الإسبانية على مختلف الأصعدة حتى يومنا هذا، فالأثر العربي يبرز في كل مرفق من مرافق الحياة الإسبانية ابتداء بالأشكال الهندسية المعمارية، ومروراً بالعادات والتقاليد، وانتهاء بالمكتبات العربية التي تمتلىء بنتاج العقول العربية الإسلامية في مختلف العلوم، التي كانت ولا تزال الأساس المرجعي الذي انطلق منه الغرب في بناء حضارتهم.

من كل ذلك نجد الاهتمام الإسباني بالشرق أمراً طبيعياً يحتمه الواقع التاريخي الذي مرت به إسبانيا، والذي خلف وراءه مادة علمية كبيرة كانت الدافع الأول الذي حرك الإسبان للاهتمام بالعلوم الشرقية والتخصص فيها، وهذا الاهتمام قديم قدم الحضارة العربية في الأندلس، فهو قد بدأ منذ أن أحس الغرب ـ وفي مقدمتهم الإسبان ـ بالحاجة إلى العلوم العربية، وتطور بعد ذلك إلى أن وصل ذروته في القرن الثاني عشر، في الفترة التي عرفت بعصر الاستعراب الأوروبي، والتي تعلق فيها الإسبان باللغة العربية وفتنوا بتذوق الآداب والفنون العربية تاركين كل ما يمت إلى اللاتينية وآدابها بصلة، ثم أخذ هذا الاهتمام يضعف ويقوى حسب الظروف والأحوال، تحركه دوافع كثيرة شأنه شأن بقية الاستشراق الأوروبي عموماً.

ب ـ الدراسات العربية الإسلامية في بعض البلاد الأوروبية/ مجموعة محاضرات جامعة بيروت العربية/ 1973.

ج ـ الاستشراق/ مجلة الفكر العربي/ معهد الإنماء العربي/ عددي 31 ـ 32.

بعض ملامح الاستشراق الإسباني

1 ـ الدافع العلمي هو المحرك الأول للاستشراق الإسباني، فالرغبة في تعلم اللغة العربية من أجل دارسة وترجمة الكتب العربية كانت السبب الرئيس في إقبال الإسبان على حقل الاستشراق، وإلى جانب ذلك يبرز الدافع الديني المتمثل في المستشرقين الرهبان الذين شكلون تياراً مهماً في ميدان الاستشراق الإسباني.

2 ـ يكاد الاستشراق الإسباني أن يكون مشابهاً للاستشراق الألماني في التركيز على التراث العلمي العربي، والاهتمام به حفظاً وفهرسة وتحقيقاً ونشراً، ولعله امتاز عنه بامتلاك جزء كبير من هذا التراث في المكتبات الإسبانية.

3 ـ على الرغم من أن القرن العشرين شهد انخفاضاً واضحاً في العمل الاستشراقي من حيث المستوى الكمي، إلا أننا نجد شذوذاً عن ذلك في الاستشراق الإسباني، يمثله عدد من المستشرقين الإسبان وفي طليعتهم العالم الكبير آسين بلاسيوس الذي خلف ما يقرب من مائتين وخمسين كتاباً وبحثاً بعضها في عدة مجلدات، وكذلك غونزاليث بلانسيا[1] الذي خلف ما يقرب من ثلاثمائة وعشرين كتاباً وبحثاً، وهو عدد يذكرنا بما تميز به الألمان في مراحل الاستشراق الأولى من تفرغ للبحث والإنتاج العلمي.

4 ـ له نشاط ملحوظ في ترجمة الكتب العربية ونشرها، وهو الأمر الذي

---

(1) غونزاليث بلانسيا Angel Gonzalea Palaencia من أشهر المستشرقين الإسبان ولد سنة 1889 وتوفي سنة 1949، ترأس كرسي التاريخ الإسلامي في جامعة مدريد، وانتخب عضواً للأكاديمية الملكية للتاريخ والأكاديمية الملكية الإسبانية، خلف عدداً من الآثار منها: المخطوطات العربية والإسبانية المكتوبة بالخط العربي، تاريخ إسبانيا الإسلامية، المسلمون والمسيحيون في إسبانيا القرون الوسطى. الخ. انظر: د. ميشال جحا/ الدراسات العربية ص39.

كان له إلى جانب الاستفادة العلمية الأوروبية أثر في تعريف الإنسانية بالفكر العربي الإسلامي، ومن أشهر المترجمين أميلو غرسياغومث.

5 ـ شهد الاستشراق الإسباني نشاطاً كبيراً في القرن التاسع عشر وما بعده وكان ذلك بسبب الإقبال الكبير للباحثين الإسبان على ميدان الدراسات الشرقية الذي جذبهم إليه وفرة المخطوطات العربية التي ضمتها المكتبات الإسبانية.

6 ـ الفلسفة والتصوف والأدب والتاريخ أبرز الميادين التي ركز عليها المستشرقون الإسبان وأنتجوا فيها مؤلفات كثيرة، ومن البارزين في هذه الميادين بلاسيوس وريموندو[1] والأب داريو.

7 ـ كان للقساوسة والرهبان أثر واضح وفي تنشيط الاستشراق الإسباني، وذلك بانخراطهم الشخصي في هذا الميدان، أو بدفعهم الباحثين الآخرين إليه، ومن أشهر هؤلاء يوحنا الأشقوبي، وبدرو القلعاوي[2]، وريموندو مارتيني، وكانيس[3].

8 ـ فهرسة المخطوطات العربية أحد المجالات التي اهتم بها المستشرقون الإسبان، وكان لهم فيها دور واضح، ومن الأسماء اللامعة في الفهرسة

---

(1) ريموندو: R. Martint من طلائع الرهبان الذين استشرقوا ولد سنة 1230 وتوفي سنة 1284، تعلم العربية في تونس وأتقن إلى جانبها لغات شرقية أخرى، نال حظاً من العلوم الإسلامية حتى قيل إنه حفظ صحيحي مسلم والبخاري، خلف بعض الآثار منها: خنجر الإيمان. انظر؟ العقيقي (المستشرقون) ج2 ص31.

(2) بدرو القلعاوي Pedro de Alcaia من الرعيل الأول من المستشرقين الأسبان، عاش في القرن الخامس عشر، ويعزي إليه أنه أول من وضع قاموساً بلغة أوروبية/ عربية. انظر: د. بدوي (موسوعة المستشرقين) ص49.

(3) كانيس Francisco Canes من المستشرقين الإسبان الرهبان، عمل في كلية الآباء المبشرين الإسبان في دمشق وعضواً في أكاديمية التاريخ، له من الأعمال قاموس إسباني/ لاتيني عربي، والنحو العربي العامي والفصيح انظر: د. بدوي (موسوعة المستشرقين) ص 320.

غينغوس[1] وسلفادور غوميث[2] وألاركون[3].

9 ـ يشترك مع الاستشراق الإيطالي في وجود الكثير من المستشرقات وخاصة في العصر الحديث الذي شهد انضمام الكثير منهن إلى حقل الاستشراق، ومن أبرزهن رفائيلا ماركيث[4] وماريا فائكيث[5] وخواكينا إيبانيث[6] وغيرهن كثير.

10 ـ له مساهمة فعالة في النشاط الصحفي الاستشراقي، وذلك من خلال مجموعة هائلة من المجلات الاستشراقية التي تصدر في إسبانيا،

---

(1) غينغوس: Pascual Gayangos مستشرق إسباني ولد سنة 1809 وتوفي سنة 1879، شغل مناصب متعددة منها رئيس كرسي اللغة العربية في جامعة مدريد وعضواً في أكاديمية التاريخ، اشتهر باقتناء المخطوطات، وتميز بلغته الإنجليزية الرفيعة، خلّف آثاراً عديدة منها: اللغة والأدب عند المورسكيين/ ترجمة نفح الطيب إلى الإنجليزية/ تاريخ ملوك غرناطة وأعمالاً أخرى كثيرة تتعلق بالتاريخ والأدب الإسباني. انظر: د. بدوي/ موسوعة المستشرقين/ ص103.

(2) سلفادور غوميث Salvador Gomez Nogales راهب إسباني ولد سنة 1913، اهتم بالجوانب الفلسفية والفلسفة الإسلامية بوجه خاص، وله أعمال حول ابن رشد وابن حزم، ومن أعماله: ترجمة تهافت التهافت لابن رشد إلى الإسبانية، ما وراء الطبيعة عند العرب، نظرية الاستسلام في صوفية الإشراق، الخ. انظر: د. ميشال جحا (الدراسات العربية) ص 149.

(3) الاركون: Alarcon. Y مستشرق إسباني ولد سنة 1880 وتوفي سنة 1932، تمكن من اللغة العربية ودرّسها في معظم الجامعات الإسبانية، خلف عدداً من الأعمال منها: الأثر الإسلامي في الصوتية الحديثة، فهرس المخطوطات العربية والأعجمية المكتوبة بلغة العامة في مدينة العرائش. انظر: العقيقي (المستشرقون) ج2/ 591.

(4) رفائيلا ماركيث Rafaela castrillo Marques مستشرقة إسبانية ولدت سنة 1931، تخصصت في اللغة العربية وحصلت على الدكتورة في تاريخ شمال إفريقيا، انظر: د. ميشال جحا (الدراسات العربية) ص 161.

(5) ماريا فائكيث Maria Vazquez مستشرقة إسبانية تخصصت في اللغة العربية، وزارت عدداً من البلاد العربية وعاشت في بعضها لفترة طويلة، عملت مع المعهد الإسباني العربي للثقافة، لم أقف لها على أي عمل علمي خلفته. انظر: د. ميشال جحا (الدراسات العربية) ص 161.

(6) خواكينا إيبانيث Joaquina Ibanez مستشرقة إسبانية تخصصت في اللغة العربية ودرست في معهد الدراسات العربية في جامعة غرناطة، نالت الدكتوراه في أشعار ابن ليون حول الزراعة وليس لها عمل غيره فيما أعلم. انظر: د. ميشال جحا (الدراسات العربية) ص162.

وأهمها مجلة الأندلس ومجلة إفريقيا، ومجلة المنارة، ومجلة منتجات من الدراسات العربية والعبرية إلخ . . .

11 ـ يعتبر المعهد الإسباني العربي للثقافة الذي يديره المستشرق آسين بلاسيوس واحداً من أهم مكانين نشط فيهما الاستشراق الإسباني، كما تعتبر مكتبة الأسكوريال أهم المكتبات التي انطلق منها؛ وذلك لما تحويه من نفائس التراث العربي الإسلامي.

12 ـ ليس للاستشراق الإسباني /فيما بدا لي/ مساهمة واضحة في الأمور السياسية والاستعمارية كما هو الحال لدي غيرهم من مستشرقي البلدان الأوروبية الأخرى.

المدرسة الصهيونية

على الرغم من أن كثيراً من الباحثين لم يشيروا إلى هذه المدرسة بشكلها المستقل إلا أن الباحث المدقق لا يجد عناء في اكتشاف سماتها، خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين الذي حاولت الصهيونية فيه أن تمسك بزمام الأمور في العالم اقتصادية وسياسية وثقافية، وأن توجهها لصالحها، ومن خلال سيطرة اليهود والصهاينة على وسائل الإعلام العالمية صناعة وخبراً يمكن لنا أن نكتشف وجود هذه المدرسة وتأثيرها في مدارس الاستشراق الغربي الأُخرى، بل استغلالها وتسخيرها لها لخدمة قضاياها.

أما قبل النصف الثاني من القرن العشرين فإنه يصعب تمييز مدرسة مستقلة للاستشراق اليهودي، وذلك لأن أغلب رواد هذه المدرسة كانوا منبثين في دول العالم الغربي، حيث يمارسون أدوارهم باعتبارهم غربيين لا يهوداً وصهاينة، وهذا التستر بالزي الغربي استفاد منه اليهود كثيراً في خدمة قضايا صهيونية مع تقديمها في قالب غربي، لضمان القبول لها حتى في أوساط العرب والمسلمين، مستغلين في ذلك عقدة النقص الشرقية تجاه الغرب.

كما أن اليهود استفادوا من التصاقهم بالغرب في عدم ظهورهم بشكل مستقل يعرضهم للهجوم المباشر ويجعلهم عرضة للمحاربة حتى من قبل الغربيين أنفسهم، ونتيجة لذلك كله فضل المستشرقون اليهود العمل في الدائرة الغربية طوال مرحلة الشتات.

أما حين ظهور الكيان الصهيوني في فلسطين وبناء الدولة الصهيونية وتأثيرها في مجريات الأحداث العالمية، فإن اليهود لم يعودوا بحاجة إلى التستر خلف الإطار الغربي، ومن هنا ظهرت بصورة واضحة وجلية ملامح هذه المدرسة الجديدة المتمثلة في المدرسة الصهيونية، التي تضم، كما نعتقد، كل الباحثين اليهود الذين يعيشون في دول العالم الغربي، كما تضم كل المستشرقين الغربيين والماركسيين ذوي الولاء الصهيوني، ونتيجة لهذه الأنواع التي تحتويها هذه المدرسة ونتجة لما امتلكه اليهود والصهاينة من إمكانات مادية هائلة استطاعت هذه المدرسة، أن تفرض وجودها أخيراً في ميدان الفكر الاستشراقي، بل أن توجه حركة الاستشراق نحو منعرجات جديدة تجعلنا نقول بيقين: إن مرحلة الاستشراق المعاصرة هي المرحلة الصهيونية.

وإذا كان الكلام ثقيلاً على البعض وغير مستساغ فإننا يمكن أن نوضحه بأن نقول: إن الهيمنة الصهيونية على ميدان الفكر الاستشراقي الغربي تبدو واضحة في السيطرة على وسائل الإعلام العالمي سواء أكان ذلك المرئي أم المسموع أم المقروء، فمعظم المؤسسات الإعلامية الكبيرة في العالم هي إما ملكية كاملة لليهود أو ملكية جزئية مؤثرة، ومن هذه مثلاً مؤسسة فرنكلين للطباعة.

ومن خلال هذه المؤسسات وما يلحق بها من مؤسسات صناعية لصنع المواد الخام الإعلامية يستطيع اليهود والصهاينة التحكم في ما يسمع العالم أو يشاهد أو يقرأ، فالمادة إخبارية كانت أو علمية لا تمكن من الذيوع والانتشار

إلا إذا رضيت عليها هذه المؤسسات واتفقت مع أهدافها ومصالحها، ولا شك في أن المستشرق الغربي هو جزء من هذا العالم تؤثر فيه هذه الوسائل الإعلامية، وتشكل صياغة معينة لمجمل أفكاره، فهو لا يستطيع بأي حال التخلص من سيطرتها، بل على العكس من ذلك فإنها تلقى منه قبولاً ورضا إذا تعلق الأمر بواقع عربي أو إسلامي الذي يلتقي فيه اليهودي والنصراني معاً على قناعة واحدة أساسها مقاومة الإسلام والمسلمين.

وإذا فرض أن وجد صوت غربي حر يحاول أن يتخلص من هذه الهيمنة الصهيونية، ويصل إلى حقيقة علمية لينبه الناس من خلالها إلى واقع غير صحيح فإن السهام كلها ستتوجه نحو إسكاته بدءاً برميه بالتهمة المميتة أحياناً وهي معاداة السامية، وانتهاء بحصاره إعلامياً والتعتيم عليه بكل الوسائل، حيث لا يلقى بعد ذلك سبيلاً إلى الظهور[1].

بمثل هذه الصورة استطاع الصهاينة السيطرة على الاستشراق الغربي وتسخيره وتوجيهه لخدمة قضايا وأهداف معينة لعل أهمها:

1 ـ تجذير كل النظريات العرقية وتوسيع ميدان البحث فيها لتؤدي إلى تحقيق الطموحات الصهيونية في تسخير شعوب العالم واستعبادهم.

2 ـ توسيع مجالات البحث الاستشراقي الغربي القديم المدفوع بدافع ديني متعصب الذي ركز على تشويه الإسلام والمسلمين.

3 ـ استحداث مجالات بحثية جديدة تصب في إطار تدعيم الكيان الصهيوني في فلسطين، وإبراز كل ما يؤكد حق الصهاينة فيها، والتعتيم على كل ما يظهر حق الشعب الفلسطيني.

وتأكيدا على الأهداف السابقة قام الصهاينة بتبني كل الدراسات

---

(1) يمكن الرجوع إلى أثر الصهونية واليهودية على الاستشراق / محمد فتح الله الزيادي/ ندوة الدين والتدافع الحضاري/ مركز دراسات العام الإسلامي/ مالطا/ 1988م.

الاستشراقية القديمة، وعملوا على نشرها والاستفادة منها وكان ذلك يهدف إلى:

أ ـ تفهم طبيعة الإنسان العربي كشخصية والإنسان المسلم كنموذج.

ب ـ تفهم طبيعة المجتمع العربي كتركيبة سكانية.

ج ـ التعرف على الدين الإسلامي الذي هو الدين السائد في المنطقة العربية.

د ـ استخدام الدراسات السابقة بداية لدراسات عنصرية استعمارية ترفع من شأن اليهود وتقلل من قيمة العرب والمسلمين.

واعتبارا لكل ما تقدم بدأ الصهاينة منذ استيلائهم على فلسطين بتوثيق الصلة مع المؤسسات الصهيونية ووضع برامج عمل مشتركة لتحقيق المستهدفات السابقة، وقد تم ذلك في خطوات علمية متعددة نذكر منها:

1 ـ التعاون المستمر في مجال إعداد الكوادر العلمية المتخصصة في ميدان الدراسات الشرقية.

2 ـ تقديم الجامعات العبرية منحاً بحثية سنوية لكل المستشرقين الغربيين الراغبين في التفرغ للبحث العلمي في الكيان الصهيوني.

3 ـ تكوين فرق علمية مشتركة بين الصهاينة والمستشرقين الغربيين تعمل في إطار الخطط العلمية للجامعات العبرية.

4 ـ المشاركة الفاعلة والمستمرة للعلماء الصهاينة في مؤتمرات المستشرقين المختلفة.

اهتمامات البحث العلمي في المدرسة الصهيونية

لا نستطيع بشكل علمي ودقيق أن نحصر اهتمامات المدرسة الصهيونية ومجالاتها البحثية، وهي واسعة ومتنوعة تتعدى الدائرة العربية الإسلامية، وتنحصر في إطار كل ما يخدم مقولة الشعب المختار، ونتيجة لذلك فإن

الإحاطة بما يقع عليه البحث الصهيوني أمر بالغ الصعوبة، ولكن مع ذلك يمكن لنا أن نذكر ما يظهر لنا منه وما يقع في إطار اهتمامنا نحن العرب والمسلمين، والذي يمكن أن نشير إلى بعض منه في النقاط التالية:

1 ـ إحياء كل الدعوات التي تؤكد على أرض الميعاد وتدعو إلى التشبث بها.

2 ـ تأسيس ودعم الجمعيات العلمية التي تهتم بالبحث في شؤون الأرض المقدسة من جميع الجوانب.

3 ـ إبراز دور اليهود في الجزيرة العربية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وكيفية استيطانهم فيها، وعلاقاتهم بالعرب وغيرهم ممن عاشوا في الجزيرة العربية، ومن ذلك مثلاً دراسات (إسرائيل ولفنسون)[1] عن تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ودراسات دوزى ومرجليوت وريني عن صلة الإسرئيليين بالعرب في الجزيرة العربية، وكذلك ما قام به المستشرق الفرنسي إلبرت موسيل من رحلات إلى الجزيرة العربية أعقبتها دراسات تنصب في هذا الاتجاه.

4 ـ تشجيع كل الدراسات التي تدعو إلى تحديث اللغة العربية ومحاولة عصرنتها، وقد شهدت المنطقة العربية محاولات متعددة في هذا الجانب.

5 ـ دعم كل الدراسات التي تهتم باللغات السامية في الجامعات العربية وصولاً إلى الاهتمام باللغة العبرية والتركيز عليها.

6 ـ إبراز أثر اليهود في الأدب العربي وصولاً إلى التركيز على دراسة

---

(1) إسرائيل ولفنسون Wolfensohn. Y. مستشرق ألماني من أصل يهودي، تخصص في اللغة العربية ودرس في الجامعة المصرية وكلية دار العلوم، له أعمال عديدة منها: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، تاريخ اللغات السامية، موسى ابن ميمون (حياته ومصنفاته) كعب الأحبار. الخ. انظر: العقيقي (موسوعة المستشرقين) ج2 ص762.

الآداب العبرانية، وكان أبرز دعاة هذا الاتجاه المستشرق ولفنسون تلميذ طه حسين وتبعه بعض الباحثين العرب من أمثال مراد قرط، ولطفي السيد الذي أوفد من قبل الجامعة الصهيونية لينوب عنها في حفل افتتاح الجامعة العبرية في القدس.

7 ـ دعم كل الدراسات التي تبرز ـ ولو بشكل غير صحيح ـ الأثر اليهودي في الإسلام ديناً وحضارة وتفاعلاً سكانياً.

8 ـ تشجيع كل الدراسات والأبحاث التي تحاول استغلال الأحداث العالمية وتوظيفها لخدمة السياسة الإسرائيلية، فكل الأحداث الإرهابية في العالم هي من فعل العرب والمسلمين وتخطيطهم، ويسعى الإعلام الغربي بكل الوسائل إلى إظهار الشخصية العربية والمسلمة في صورة متوحشة وقذرة، وميالة إلى العنف والإرهاب، ومتعطشة إلى الجنس والقذارات الأخلاقية.

9 ـ البحث بعمق في كل جوانب التراث الإسلامي التي تؤدي إلى توظيفه في خدمة القضايا الصهيونية المعاصرة. فالدراسات التاريخية يمكن أن تقود إلى دروس مفيدة في التعامل مع الأنظمة العربية والإسلامية، وهكذا جاءت وباعتراف مستشرقين صهاينة/ اتفاقية كامب ديفيد/ بوحي من صلح الحديبية الذي قام على فكرة تحييد القوة الأكبر ليتم التعامل مع القوى الباقية بسهولة، وبنفس الروح تقوم الآن في الجامعات العبرية فرق بحثية لدراسة معنى الجهاد، وكيف يمكن أن يستيقظ في المشرق العربي، ومدى حيويته في منطقة الشام بالذات، وما مدى تأثير فكرة الجهاد قبل الحروب الصليبية وبعدها وأثناءها، ويحللون مدى أهمية القدس في نفوس المسلمين وردود فعلهم تجاه احتلالها قديماً وحديثاً، ويحاولون التعرف على جذور الترابط في المنطقة من مصر إلى العراق، وعن أسباب توحدها في حطين وما

بعدها، ويدخل في دائرة اهتمامهم كل ما له علاقة بهذه الحروب من أدبيات شعرية أو نثرية أو فتاوى فقهية، ويعتنون أيضاً بالبحث عن أفضلية المدن عند المسلمين، ويقارنون في ذلك بين مكانة المدينة ومكة وبين القدس، وفي هذا المجال يدرسون ويحللون ما يقرب من خمسة وثلاثين مؤلفاً عربياً[1].

هذه هي فقط نماذج لاهتمامات الصهاينة في ميدان الدراسات الشرقية وكيفية تسخيرها للبحث الاستشراقي لخدمة قضاياهم، وأود أن أشير أخيراً إلى أن البحث في هذا الموضوع لا يزال بكراً يحتاج إلى العديد من الدراسات المعمقة والمتخصصة، وللكشف عن الكثير من الجوانب التي لم يتسع المجال لتناولها، والكثير من الجوانب الأُخرى التي لم تتوافر الإمكانيات للاطلاع عليها ودراستها[2].

الاهتمام المعاصر بالشرق وأهم مراكزه

لعله من الجدير بالملاحظة أنني لم أتناول الاستشراق الأمريكي ولم أشر إليه كمدرسة مستقلة ذات أثر فعال في ميدان الدراسات الاستشراقية، والحقيقة أن ذلك راجع لسببين: الأول أن البيئات الاستشراقية التي تناولتها سابقاً هي بيئات عريقة، ويرجع تاريخ الاستشراق فيها إلى قرون، عديدة تصل في بعضها إلى ما يقرب من عشرة قرون وليس الاستشراق الأميركي من هذا النوع، إذ هو حديث حداثة أمريكا نفسها، ونشاطه الفعلي لم يلاحظ إلا في فترات قريبة جداً وبشكل مثير في القرن العشرين، بحيث صارت أهم مراكز الاستشراق وأبرز أعلامه يتخذون من أمريكا مقراً ومن جامعاتها

(1) د. شاكر مصطفى (من الغزو الصليبي إلى الغزو الصهيوني وبالعكس) مجلة تاريخ العرب والعالم. السنة 9/ العدد 105/ 106 (يوليو/ أغسطس 1978).

(2) للمزيد حول هذه المدرسة انظر: إبراهيم عبد الكريم/ الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل.

وإمكاناتها وسيلة للحركة والفاعلية، ومن هذا المنطلق أجلت الحديث عن الاستشراق الأمريكي إلى هذه النقطة التي تتحدث عن الاهتمام المعاصر بالشرق لأنها لصيقة به معبرة عنه.

من المسلم به لدى كثير من الباحثين أن الاستشراق المعاصر ليس إلا وظيفة سياسية أو اقتصادية يقوم بها المستشرقون لصالح مؤسسات حكومية أو شركات تجارية، وهذا هو الذي سبب في فعالية الاستشراق الأمريكي وتفوق نشاطاته على الاستشراق الأوروبي، لما له من صلة وثيقة بالهيمنة التي تمارسها الولايات المتحدة على شعوب العالم بأسره والشرق في مقدمته.

ومن هذا المنطلق فإن الحديث عن الاستشراق كمظهر اهتمام علمي يكاد ينعدم في إطار الدراسات الاستشراقية المعاصرة، إذ ليس لهذه الدراسات من يرعاها ويدعمها، فضلاً عن أنها ربما تقدم من المعلومات والحقائق ما لا تريد المؤسسات الغربية إظهاره أو حتى السماح بتداول أخباره، وكمثال على ذلك يأتي موضوع الإسلام الذي يدرس اليوم في الغرب على أنه المعوق الأول لكل المشاريع الغربية في الشرق أيا كانت صورتها، ولذلك فمن غير المعقول أن تدور دراسات علمية حول الإسلام لأنها بكل تأكيد لا تخدم المصالح الغربية، وعلى هذا فالدراسات حول هذا الموضوع لا بد أن تكون في الجانب السلبي الذي يؤدي إلى احتقار الإسلام واعتباره مظهر تخلف ورجعية، وفي هذا الإطار يقول أحد الباحثين: لقد غدا الإسلام اليوم بالنسبة إلى الجمهور العام في أمريكا وأوربا أخباراً بغيضة بشكل خاص، وتنضوي وسائل الإعلام والحكومة والاستراتيجيون الجغرافيون والخبراء الأكاديميون المختصون في الإسلام/ وإن يكن هؤلاء هامشيين بالنسبة لمجمل الثقافة/ في جوقة متناغمة واحدة: الإسلام تهديد للحضارة الغربية[1].

(1) إدوارد سعيد (تغطية الإسلام) ترجمة سميرة خوري / مؤسسة الأبحاث العربية/ بيروت. ص159.

هكذا هي صورة الدراسات الشرقية المعاصرة سواء في جانبها المتعلق بالإسلام أو في جوانبها الأُخرى المختلفة، هي دراسات غرضية وليست تلقائية، ونظراً لأنها كذلك فلا بد أن تكون مسألة معقدة يشترك فيها الكثير من العوامل التي يتطلب وجودها هذا الهدف الجديد المحدد للدراسات الاستشراقية المعاصرة، وعلى أساس هذا فإن الأطراف المشاركة في هذا الحقل كما يقول أحد الباحثين (حوض من المصالح... تربط بين شركات الأعمال والمؤسسات وشركات النفط والإرساليات والمؤسسة العسكرية والسلك الخارجي ومجتمع الاستخبارات وبين العالم الجامعي، ثمة منح ومكافآت، ثمة منظمات، ثمة تركيبات سلالية، ثمة معاهد ومراكز وكليات ودوائر مكرسة جميعاً لشرطة السلطة التي تتمتع بها حفنة من الأفكار الأساسية التي لا تتغير أساساً حول الإسلام والشرق والغرب والاحتفاظ بها وتعزيزها، ويجلو تحليل نقدي قريب العهد لعملية دراسات الشرق الأوسط في الولايات المتحدة لأن الحقل (موحد متناغم) بل (معقد متشابك) إذ يضم مستشرقين من الطراز العتيق، ومختصين هامشيين عمداً ومختصين بمحاربة العصيان والشغب، وصانعين للسياسة إضافة إلى أقلية ضئيلة... من سماسرة القوة الجامعيين[1].

هذه الشبكة المعقدة هي التي تدير حقل الدراسات الاستشراقية المعاصرة، فهي التي تشكل صورة الشرق عند الغربيين، وهي التي ترسم القرار للسياسيين، وهي التي توضح الصورة الشرقية للاقتصاديين الغربيين، ولذلك فالباحث عن مراكز الاستشراق المعاصر سوف لن يتجه إلى الجامعات والمعاهد والمراكز المتخصصة فقط، أو إلى الجهود الفردية المتحمسة، فتلك صورة لم تعد تعبر عن الجهد الاستشراقي كما كانت سابقاً، وإنما يجب أن يتجه البحث إلى المؤسسات المالية الاقتصادية، وإلى الدوائر الحكومية ومدى

(1) إدوارد سعيد (الاستشراق) ص 300.

علاقتها بالمؤسسات الأكاديمية فتلك وحدها هي الكفيلة برسم صورة المراكز الاستشراقية المعاصرة.

وكمثال على ذلك نشير إلى جامعة برنستون في الولايات المتحدة الأمريكية والعلاقة التي بينها وبين مؤسسة (فورد)، فلقد أقامت هذه الجامعة الشهيرة في الفترة ما بين (1971/ 1978م) وبتمويل من مؤسسة فورد أربع حلقات دارسية كبيرة كان موضوع أحدها الشرق وما يتصل به من مؤسسات في إفريقيا وكان من ضمن ما ركزت عليه هذه الحلقة:

1 ـ خوف الأفارقة ونفورهم من المسلمين العرب.

2 ـ تحذير البلدان الإفريقية من الاعتماد كثيراً على الشعوب العربية.

وكان موضوع الثانية (الملة) وقد قصد به دراسة الأقليات الدينية وأوضاعها في الدولة المسلمة في الشرق الأوسط (وتناولت حلقة أُخرى موضوع (تطبيق التحليل النفسي وأساليب التحليل السلوكي في فهم المجتمعات الشرق أوسطية الحديثة) وعالجت حلقة رابعة موضوع (الأرض والسكان والمجتمع في الشرق الأوسط) دراسات في تاريخ الاقتصاد منذ نشوء الإسلام حتى القرن التاسع عشر[1].

ولست بصدد التعليق على هذه الدراسات وأهدافها ومن المستفيد منها، ولكني وددت أن أبين أن حقل الدراسات الاستشراقية المعاصرة قد أصبح معقداً بدرجة كبيرة، وأصبح يمثل أهمية عظمى في العالم الغربي، حيث لم تعد تحتاج إليه الجامعات فقط وإنما أصبحت هذه وسيلة تغطية لمؤسسات أُخرى تشترك في صياغة هذا الحقل ودعمه وتطويره.

أما أهداف هذه الدراسات فإنه ينبهنا إليها تقرير وضعه «برز» الذي عمل

---

(1) إدوارد سعيد (الاستشراق) ص 300.

(2) إدوارد سعيد (تغطية الإسلام) ص160 وما بعدها.

مع كرومر عضوين في لجنة شكلت سنة 1909م، لتمارس الضغط من أجل خلق مدرسة للدراسات الشرقية، حيث قدم هذا التقرير سنة 1914م، إلى مؤتمر عقد في مانشستر هاوس بهذا الخصوص حيث يقول فيه: (في رأيي أن تأسيس مدرسة كهذه للدراسات الشرقية ـ وهي المدرسة التي أصبحت فيما بعد مدرسة جامعة لندن للدراسات الشرقية والإفريقية ـ في لندن هو جزء ضروري من تأسيس الإمبراطورية. إن الأماكن التي تحتوي على الاستشراق المعاصر كثيرة ومتنوعة، ولكن يمكن أن نذكر منها أسماء قليلة جداً كعينات، تاركين مسألة رصدها وتتبعها لدراسات أُخرى مستقلة فمنها على سبيل المثال:

في بريطانيا:

1 ـ جامعة كمبردج: ومن أهم أعمالها المعاصرة: تاريخ كمبردج للإسلام في مجلدين صدرت طبعته الأولى سنة 1970. واشترك فيه عدد من نجوم الاستشراق الأنجليزي المعاصر.

2 ـ مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن، ومن أعمالها مجلد بعنوان الثورة في الشرق الأوسط ودراسات موضعية أُخرى.

في أمريكا:

1 ـ جامعة برنستون ومن أهم أعمالها الحلقات سابقة الذكر.

2 ـ رابطة دراسات الشرق الأوسط (ميسا) ومن أهم أعمالها: مجلد ضخم بعنوان [دراسة الشرق الأوسط]: البحث والتدقيق العلمي في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية. نشر سنة 1976م. ويحتوى على مسح شامل لحقل الدراسات الشرق أوسطية.

في هولندا:

1 ـ معهد الشرق الأوسط الحديث بجامعة أمستردام.

2 ـ جامعة ليدن هي المؤسسة التي تحتوي على أكبر مجموعة للمخطوطات والمراجع العربية في هولندا، وهي من أشهر الجامعات المهتمة بالبحث الاستشراقي في العالم الغربي.

في فرنسا:

تحتل جامعة السربون وفروعها المركز الرئيسي في الاهتمام بالدراسات الاستشراقية حيث تعد هذه الجامعة أعرق الجامعات الغربية وأكثرها اهتماماً بالدراسات العربية والإسلامية خاصة فيما يتعلق ببرنامجها للدراسات العليا الذي يعكس اهتماماً غير عادي بكثير من مناطق العالم الإسلامي وقضاياه المختلفة[1].

وإذا انتقلنا بعد هذا إلى أهم مراكز الاستشراق المعاصر فإن أهم مايلفت أنظارنا هو ارتفاع عدد المهتمين بهذا النوع من الدراسات، وخاصة في الولايات المتحدة، فلقد شهد حقل الاستشراق المعاصر تطوراً عددياً هائلاً يعكس أهمية هذا الحقل عند الشرقيين ومردوده الوظيفي والمادي لدى المنخرطين فيه، ويمكن الاستشهاد في هذا المجال بدراسة فرنسية للمراكز الأمريكية للدراسات الشرق أوسطية، حيث يرد فيه (أنه في سنة 1970م). قام حوالى ألف وخمس مئة وخمسون مختصاً في الشرق الأوسط بتعليم لغات المنطقة لألفين وخمس مئة وتسعة وخمسين طالباً من طلاب الشهادة الجامعية الأولى (أي بنسبة 12 في المائة و4،7 في المائة) على التوالي من المجموع العام لطلاب الدراسات العليا وطلاب الشهادة الأولى الذين يتخصصون في «دراسة المناطق»، وقد التحق بالمؤسسات الخاصة بدراسات منطقة الشرق الأوسط ستة آلاف وأربعمائة طالب من طلاب الدراسات العليا واثنان

(1) انظر في ذلك دراسات شرقية التي تصدر بباريس والتي تحوي الكثير من المعلومات الاحصائية حول الرسائل الجامعية والدراسات الأكاديمية.

وعشرين ألفاً ومائتا طالب من طلاب الشهادة الجامعية الأولى (أي ما يعادل 6، 12 في المائة من المجموع العام)[1].

ولا شك في أن هذا عدد رهيب إذا أخذنا في الاعتبار أنه يمثل الولايات المتحدة وحدها دون بقية العالم الغربي، فإذا تصورنا ذلك تعرفنا على ضخامة هذا الحقل عددياً، وقدرنا حجم الإمكانات الكبيرة التي تنفق عليه وحجم المؤسسات التي تحتضنه.

المستشرقون والتراث الإسلامي

لعل من نافلة القول أن أبدأ بالتذكير بأنه يقصد بالتراث الإسلامي كل ما خلفته الحضارة الإسلامية من آثار مادية ومعنوية ذات أثر في الكشف عن عقلية المسلمين وقيمة مساهمتهم في ميدان الحضارة الإنسانية، ولكني في هذا الباب أقصد بالخصوص نوعاً معيناً من التراث وهو المتمثل في ما خلفته الأقلام الإسلامية من أعمال علمية وأدبية رائعة تمثلت فيما عرف عند الباحثين بالمخطوطات العربية، فهذا النوع قد لقي إقبالاً رهيباً من قبل المستشرقين الغربيين، لدرجة أنهم أصبحوا يمتلكونه ويستحوذون عليه في متاحفهم، ويتصرفون فيه وفق ما أرادوا دون أن يكون لنا رأي فيه أو حق في الانتفاع به، وهذا في حد ذاته يشكل مشكلة كبيرة لا زلنا نعاني منها ومن آثارها إلى يومنا هذا، ولا زال الغرب يستخدم هذا التراث بأشكال متعددة لصالح الإنسانية وضدها دون أن يكون لنا حتى حق الاعتراض على ذلك.

والسؤال المهم الذي يمكن أن نبدأ به هو: كيف وصل هذا التراث المهم إلى خزائن الغرب؟

لقد وصل هذا التراث ـ كما نتصور ـ بأساليب مختلفة وفي ظروف متنوعة لعل من أهمها:

---

(1) إدوارد سعيد / تغطية الإسلام/ ص 129.

أ ـ الاستيلاء المصاحب للحملات الاستعمارية التي أصيب بها العالم الإسلامي، فهذه الحملات قد فتحت المجال واسعاً أمام المؤسسات الغربية المختلفة لنقل كل ما يقع تحت أيديهم من مخطوطات ووثائق، ولا أحد يمكن له أن يعترض أو يمنع ذلك؛ لأن المقدرات كلها في يد المستعمر.

ب ـ عن طريق الهدايا والتبادل التي كان يحصل عليها الغربيون نتيجة سفاراتهم وبعثاتهم إلى العالم الإسلامي.

ج ـ عن طريق الشراء سواء أكان شخصياً أو رسمياً، فالأول تم عن طريق الرحالة والمستشرقين الذين جابوا مناطق العالم الإسلامي، أو الذين أتيحت لهم مصاحبة الحملات العسكرية أو الإرساليات التنصيرية، وهؤلاء تم لهم جمع الكثير من هذه المخطوطات وبأثمان زهيدة نتيجة حاجة وفقر مالكيها، أو تحت وطأة عدم تقديرهم لقيمتها. أما النوع الثاني وهو الشراء الرسمي فقد تمثل في مساهمة المؤسسات الثقافية الغربية في شراء الكثير من المخطوطات، ويضاف إلى ذلك جهود الشركات العاملة في العالم الإسلامي، وكذلك البعثات التي كانت ترسل لهذا الغرض خاصة، سواء في القديم أو الحديث، ومن ذلك مثلاً إرسال فريدريك الرابع ملك بروسيا ريتشارد ليبسيوس إلى مصر عام 1842م، وهينيريش بترمان عام 1852م، إلى الشرق لشراء مخطوطات شرقية، كما يضاف إلى هذه الجهود ما تعثر عليه بعثات الآثار الأوروبية المنتشرة في العالم الإسلامي والمقيمة فيه بشكل مستمر.

بهذه الطرق وغيرها تكوّن لدى دول العالم الغربي مخزون هائل من الكتب العربية في مختلف العلوم وأنفَسها، وتحولت بذلك العلوم العربية والثقافة الإسلامية إلى أيدي الغرب، لتكون زاداً لهم في بناء حضارتهم

الجديدة وعوناً مهماً في هدم الحضارة الإسلامية وتزييفها، ولقد قدرت هذه الكتب عددياً بمئات الآلاف امتلأت بها مكتبات أوروبا وخزائنها من أمثال مكتبات الأسكوريال بمدريد والمتحف البريطاني بلندن وغيرها.

هذا ويرجع سبب اهتمام الغربيين بهذه المخطوطات إلى عوامل متعددة أهمها:

1 ـ محاولة البحث الموسع عن المعرفة الإنسانية في مختلف جوانبها وأيا كان مصدرها وذلك في أعقاب اليقظة الأوروبية وتحت تأثير النمو الحضاري الإسلامي في الأندلس.

2 ـ تمثل هذه المخطوطات أهمية كبيرة في التعرف على الفكر اليوناني والروماني، وذلك باعتبار ما للمسلمين من دور واضح في ترجمة أجزاء مهمة من هذا الفكر.

3 ـ حب الاطلاع الذي ساد الأوروبيين، خاصة فيما يتعلق بالإسلام نتيجة التأثير الأندلسي، ونتيجة الأثر الذي تركه كتاب الرحلات في العالم الغربي.

4 ـ رغبة الكنيسة الشديدة في التعرف على الإسلام والمسلمين واستخدام هذه المعرفة في مقاومة المد الإسلامي في مختلف أنحاء العالم.

5 ـ ما تمثله هذه المخطوطات من قيمة مادية وعلمية كبيرة، وذلك نتيجة احتوائها على الكثير من النظريات العلمية التي ابتكرها العلماء المسلمون في مختلف العلوم.

هذا ويمكن لنا أن نقسم هذا التراث الذي أشرنا إلى أهميته سابقاً إلى جوانب متعددة هي:

التراث الأدبي... والتراث الديني... والتراث العلمي.

أولاً: التراث الديني:

ونقصد به تلك الكتب التي حوت كل ما له علاقة بالقرآن وتفسيره وعلومه، والحديث النبوي وعلومه، والعقيدة وتوابعها الخ ذلك. ولقد تعامل المستشرقون مع هذا النوع من التراث كثيراً، وذلك بما حققوه ونشروه وترجموه من أمهات هذه المخطوطات، ولكن هذا النوع ربما لم يلق اهتماماً واسعاً بنفس القدر الذي عليه حجم هذه المخطوطات، ويمكن أن نلخص ملاحظاتنا حول تعامل المستشرقين مع التراث الديني في الآتي:

1 ـ حُقق ونُشر وتُرجم منه القليل ولا زال الكثير محفوظاً.

2 ـ رُكز فيه على نشر التراث الخاص بالفِرَق والجدل الفلسفي والعقائدي، وكذلك الفكر الصوفي وخاصة المتطرف منه.

3 ـ غُض الطرف فيه عن نشر تراث الأعلام والعباقرة وكذلك عن كل التراث الموحد الأصيل.

4 ـ كان ولا زال المجال الذي يستخدمه الاستشراق دينياً وسياسياً في التعامل مع الشرق.

5 ـ مثل التراث الديني الوعاء الذي قدم المستشرقون من خلاله العالم الإسلامي إلى العالم.

6 ـ كان ولا زال الميدان الواسع الذي استخدمه المستشرقون للدس والتحريف والتشويه المتعمد.

ثانياً: التراث الأدبي:

ونعني به كل ألوان المؤلفات المحتوية على تاريخ العرب والمسلمين وأدبهم ولغتهم وعلومهم الاجتماعية، وهذه كانت ذات حظ كبير في عناية المستشرقين واهتمامهم، فبالمقارنة مع الجوانب الأخرى يمكن أن نعتبر أن هذا اللون من التراث قد أخذ نصيباً كبيراً من النشر والتحقيق والترجمة، ومع

ذلك فإننا يمكن أن نلاحظ عليه التالي:

1 ـ لقي هذا اللون اهتماماً واسعاً وتخصص فيه الكثير من المستشرقين من مختلف الجنسيات.

2 ـ تم التركيز في هذا اللون على تقديم الأدب الحالم المسلي الذي يخدم قضية دينية وسياسية، وكان الهدف منه احتقار عقلية المسلمين.

3 ـ ركز المستشرقون أيضاً على أدب الفِرَق وأدب الصراعات السياسية والمعارك الجدلية، واستبعد من دائرة الاهتمام أدب المثل والأخلاق وأدب الجهاد وغير ذلك.

4 ـ فتن المستشرقون كثيراً بأدب الفحش والرذيلة، وقدم بشكل يدعم مفهوم الغربي عن المسلم بأنه الإنسان الشره جنسياً.

5 ـ اهتم المستشرقون أيضاً بنشر التاريخ الذي يصور صراعات السلاطين والأمراء ونزاعاتهم ومؤامراتهم من أجل المنصب. واستبعد من دائرة الاهتمام التاريخ الذي يصور السماحة والعدل والاهتمام بأحوال الفقراء والمعوزين الخ.

6 ـ أظهر من تراثنا التاريخي المؤلفات ذات الطابع السردي التي تحكي الواقع بأي شكل، ولم يتم الاهتمام بالمؤلفات ذات الطابع التحليلي التي يزخر بها تراثنا كثيراً.

ثالثاً: التراث العلمي:

ونعني به كل المؤلفات التي تتعلق بالعلوم التجريبية المختلفة التي كان للعرب نصيب وافر في الاهتمام بها، وهذا اللون رغم اهتمام الغرب به بشكل كبير إلا أنهم لم يظهروا الكثير منه، بحيث فضلوا بقاءه في دائرة الكتمان، وذلك لما له من أثر في إثراء وتنشيط العلوم التجريبية عند الغرب، وملاحظاتنا على تعامل المستشرقين مع هذا اللون من التراث هي كما يلي:

1 ـ كان لترجمته أثر إيجابي تمثل في إظهار الوجه اللامع للحضارة الإسلامية، ومن ذلك الترجمة اللاتينية لمؤلفات ابن سينا وغيره في الفلسفة والطب وباقي العلوم.

2 ـ لم يتم الإعلان عما اكتشف منه بصورة حقيقية.

3 ـ تم إسناد الكثير من المكتشفات الغربية إلى أسماء أوروبية.

4 ـ لم يستخدم في إطار التعامل مع الشرق بل استخدم فقط في خدمة العالم الغربي.

5 ـ استخدم بعض منه في نشر الفكر التخديري الممجد للعالم الإسلامي.

هذا وقد كان اهتمام المستشرقين بالتراث الإسلامي جمعاً وتحقيقاً ونشراً وترجمة محل إعجاب بعض المشارقة ومحل غضب البعض الآخر، وكل ينطلق في حكمه من وجهة نظر تبدو معقولة، فمن أعجب بهذا التعامل رآه من زاوية أن اهتمامهم بجمع المخطوطات قد أدى إلى حفظها من الضياع، إذ لو بقيت في أمكنتها لضاعت بين إنسان لا يعرف قيمتها، وبيئة لا تمتلك الإمكانيات والتقنيات اللازمة لحفظها، ولهذا فإن انتقالها إلى خزائن الغرب قد حفظها من الضياع على الرغم من فقدانها من أيدي ملاكها الحقيقيين، إضافة إلى ذلك فإن الغربيين قد قدموا منها الكثير إلى العالم، وقاموا بمجهودات ضخمة في سبيل جمعها وتحقيقها وفهرستها إلخ.، ونتج عن ذلك ظهور مناهج جديدة في التحقيق العلمي لا زال الكثير من محققينا عالة عليها، وها هو أحد المعجبين يعبر عن ذلك حين يقول: (إننا مدينون لعلماء المشرقيات من شعوب أوروبا وشمال أمريكا بما تفضلوا علينا من نشر أسفارنا أحسن الله إليهم بقدر ما أحسنوا لمدنيتنا وأدبنا)[1].

أما الآخرون الذين يعارضون هذه النظرة فقد رأوا اهتمام المستشرقين

(1) أحمد سمايلوفتش/ فلسفة الاستشراق/ ص 161.

بالتراث الإسلامي من زاوية أنه اهتمام غرضي، يراد منه استخدام هذا التراث من أجل بناء الحضارة الغربية بما يسرقه الغربيون من اكتشافات العقول العربية، ويراد منه أيضاً أن يستخدم من أجل تدمير الحضارة الإسلامية بما يقدم منه من أشكال منفرة وكتب مشوهة وقضايا مزيفة، ومن أجل ذلك لم يكن الاهتمام الغربي بالتراث الإسلامي كلياً، بل انصب اهتمامهم على جزء منه فقط وهو الجزء المتعلق بتراث الحلاج والسهروردي وابن عربي وأبي نواس وبشار وابن الراوندي وغيرهم.

وهذا من شأنه أن يكشف عن خطة من خطط الغزو الثقافي في الاهتمام بالجوانب المضطربة المثيرة للشبهات، لإعلانها وإبرازها والاهتمام بها رغبة في دفع أفكارها المنحرفة إلى الظهور ثانية، وكان هذا الاهتمام يصاحبه حملات عنيفة على أعلام الفكر الإسلامي من أمثال الغزالي وابن خلدون والمتنبي وغيرهم. ورغم أن لكل من هذين الموقفين المتعارضين ما يبرره، إلاّ أن النظر إلى هذا التراث وتعامل المستشرقين معه يجب أن يتم من زاوية مخالفة تماماً وهي أن هذا التراث يشكل مشكلة تحد حقيقية لنا نحن المسلمين وذلك من حيث:

1 ـ أننا لا نستطيع استرجاعه إلى موطنه الأصلي وتملكه ثانية.

2 ـ أنه يحقق وينشر ويترجم دون أن يكون لنا فيه رأي ولا حقوق.

3 ـ أن الأدوار التغريبية التي مرت على العالم الإسلامي أدت إلى بعد المسلمين عن تراثهم وزهدهم فيه رغم قيمته.

ولذلك فليس هناك ما يشار إليه أكثر من الدعوة الملحة لأن تتولى مؤسساتنا العلمية والسياسية المختلفة تبني فكرة استعادة هذا التراث بالطرق القانونية، ودفع الباحثين والعلماء إلى التعلق به والتنقيب فيما لم يلتفت إليه الغربيون من جوانبه المضيئة التي هي، بلا شك، كفيلة بوضعنا على طريق التقدم في مختلف الميادين.

منهج البحث الاستشراقي
في الدراسات الإسلامية

يعتبر هذا الموضوع من أخطر المواضيع وأهمها في ميدان الدراسات الاستشراقية؛ ذلك أنه الوسيلة الوحيدة للتعرف على دراسات المستشرقين من زاوية منهجية صرفة، دون النظر إلى حساسيات دينية أو نوازع عرقية كما هو المتبادر دائماً عند الحديث عن الاستشراق وقضاياه، فالنظر في موضوع المنهج الاستشراقي ليس معناه الرد على المستشرقين فيما كتبوا، أو مناقشتهم فيما نشروا، وإنما نعني به دراسة السبيل الذي سلكوه للوصول إلى ما وصلوا إليه من آراء ومدى مطابقتها لقواعد المنهج العلمي السليم الذي لا تختص به أمة عن أخرى ولا علاقة له بدين أو شريعة منزلة.

ورغم أهمية هذا الموضوع إلا أنه يتميز بصعوبة بالغة قد تقربه من الاستحالة إن أردنا التزام المنهج العلمي الصحيح، وتتمثل هذه الصعوبة في ضخامة النتاج الاستشراقي الذي يصل إلى 60 ألف كتاب في فترة وجيزة من تاريخ الاستشراق الطويل، تقدر بخمسين سنة إضافة إلى ذلك تعدد اللغات المستخدمة في هذا النتاج بشكل يستحيل متابعته دون الاعتماد على الترجمة، وهي ـ كما نعلم ـ وإن توافرت فهي لا تقدم الوجه الصحيح والأمثل للأصل.

ومن أجل الوصول إلى تعرف صحيح على منهجية البحث الاستشراقي يجب دراسة وتقصي كل الكتابات الاستشراقية أو معظمها، وهذا فيما يبدو لي غير ممكن[1]، وأمام ذلك فإننا نريد الوصول إلى تصور عام من خلال دراسة جزء من نتاج بعض أعلام المستشرقين الذين نتصور أنهم تربعوا على عرش الدراسات الإسلامية في العالم الغربي فترة طويلة من الزمن، حتى

(1) انظر أيضاً/ د. محمد بن عبود (منهجية الاستشراق) في دراسة التاريخ الإسلامي/ مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية/ المنظمة العربية للتربية (الرياض) 1985م.

صارت آراؤهم وأفكارهم المرجع الأول للكثير من المستشرقين المعاصرين، وربما أيضاً بعض الباحثين المشارقة الذين درسوا في الغرب وتأثروا بمجريات الأفكار فيه، وهذا ـ فيما أرى ـ الحد الأدنى الذي يمكن التشبث به انطلاقاً من أن ما لا يدرك كله لا يترك جله. إن منهج البحث الاستشراقي فيما يتراءى لي يتحكم فيه عاملان رئيسان هما:

1 ـ عامل فطري طبيعي ويتمثل في العجز عن امتلاك ناصية اللغة، وخاصة مَجازاتها وأسرارها الكامنة وراء الألفاظ، فاللغة العربية بما حوته من غزارة ألفاظ وسعة معان ودلالات تشكل عائقاً أمام هؤلاء المستشرقين في الوصول إلى فهم وإدراك هذه المعاني، خاصة حين يتعلق الأمر بفهم نص قرآني، فإن الموضوع يزداد صعوبة، والوصول إلى فهم حقيقي للآيات أمر بعيد المنال بالنسبة للمستشرقين.

يضاف إلى ذلك انعدام الخلفية الثقافية الكافية في التخصص المدروس، فالمستشرقون المتعاملون مع الدراسات الإسلامية لم يعايشوا هذا التخصص في أصوله الأولى الأصلية، وإنما تتلمذوا على مصادر ثانوية لا تفي بإعطائهم مرادهم في التزود بالثقافة المطلوبة، وربما كانت سبباً في إبعادهم عن المنهج العلمي الصحيح.

2 ـ العامل الثاني هو عامل طارىء يكمن في الموروثات الثقافية الغربية عند المستشرقين الذين هم جزء من مجتمع غربي يقع في دائرة الصراع العرقي والديني مع المسلمين، وهذه الخاصية التي يتصف بها غالبية المستشرقين لا تمكن /فيما أعتقد/ من الالتزام بمنهجية علمية سليمة؛ لأن الانفلات منها /في تصوري/ يعني الانفلات من مجتمع وثقافة وتاريخ، وهذا ليس بمقدور البشر التخلص منه. ومن هنا كانت المآخذ المنهجية على كتابات وأبحاث المستشرقين التي يمكن إجمالها فيما يلي:

1 ـ الافتراضات المسبقة:

مما يهد كيان المنهجية العلمية أن يدخل الباحث بمسلمات ثابتة يحاول إخضاع بحثه لتأكيدها، والصحيح علمياً أن يتوجه البحث لاختبار فرضيات متوقعة يمكن أن تثبت أو تنفي حسب ما تمليه الحقيقة العلمية. هذا هو المنطق العلمي، ولكن المستشرقين الدارسين للإسلام بحكم مخالفتهم العقدية له لا يستطيعون التخلص من مسلماتهم أن محمداً ﷺ ليس نبياً مرسلاً، وأن القرآن الكريم ليس كتاباً منزلاً، وأن العرب ليسوا جنساً حضارياً مؤهلاً للقيام بدور حضاري إنساني، وقد أثرت هذه المسلمات في توجهاتهم البحثية فجعلتهم يحاولون الوصول إلى عدم جدة الرسالة الإسلامية، واعتمادها على مصادر قديمة، واتصال الرسول ﷺ بآخرين تعلم منهم ونقل ما نقل، ثم تراهم يتحدثون عن تأثر الرسول ﷺ بالبيئة تارة وإصابته بالصرع تارة أخرى، إلى غير ذلك من الآراء التي لسنا في مجال حصرها أو مناقشتها.

ويكفي أن نعلم أن هذا التوجه الاستشراقي سبب في كل الآراء الخاطئة التي صاحبت الفكر الاستشراقي وسببت في حساسية المسلمين تجاهه، كما أنه كان مصدر كل تهمة وجهت إلى الإسلام والمسلمين، وبعد عن الحقيقة وتضليل للرأي العام وتحريف للفكر الإنساني، وإذا كان لنا من أمثلة على ذلك ـ وهي كثيرة لا تحصى ـ فإننا ندرك قول هاملتون جب[1] في كتابه (بنية الفكر الديني في الإسلام): إن الإسلام جاء ليضفي الصبغة الدينية على تلك الاحيائية العربية القديمة، التي يقصد بها تلك العقائد الروحية الخرافية كالسحر والتنجيم والكهانة)[2].

---

(1) هاملتون جب Sir Hamilton Gibbمن أشهر المستشرقين البريطانيين، ومن مواليد الإسكندرية سنة 1890، اهتم بتاريخ الأدب العربي ودرس في جامعات أوروبية وأمريكية كبيرة، تحصل على عضوية المجمع العلمي بدمشق ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، ترك الكثير من الأعمال المهمة منها: الفتوحات العربية في آسيا الوسطى/ المدخل إلى تاريخ الأدب العربي/ تفسير التاريخ الإسلامي/ المجتمع الإسلامي والغرب الخ. انظر: ميشال جحا (الدراسات العربية) ص51 وما بعدها.

(2) هاملتون جب (دعوة تجديد الإسلام) دار الوثبة/ دمشق.

ونذكر أيضاً كثيراً من آراء جولد زيهر ومنها قوله عن المفسرين: إنهم يَسُدّون ما يكون في التعاليم النبوية من ثغرات ويشرحونها في أغلب الحالات شرحاً غير واف، أي إنهم يفسرونها معتبرين اشتمالها على ما لم يخطر على بال واضعيها من أفكار، ومنها أيضاً تأليفه كتاب (دراسات محمدية) لإثبات فكرة مسبقة هي أن الأحاديث الموجودة لدينا اليوم مختلفة وموضوعة، وهي نتيجة للتطور السياسي الذي طرأ على العالم الإسلامي بعد وفاة الرسول ﷺ)[1].

هذه السمة غير العلمية يجب ألاّ تمر بنا إلا ونذكر معها منهجنا الإسلامي في البحث العلمي، الذي عبر عنه الحسن بن الهيثم في كتابه (المناظر) حيث يقول: (ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل، لا اتباع الهوى، وفي سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء، فلعلنا ننتهي بهذا الطريق إلى الحق الذي به يثلج الصدر، ونصل بالتدريج والتلطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وينحسر بها مواد الشبهات)[2].

2 ـ الادعاء المتعمد:

حاولت أن أخفف كثيراً من لهجتي لعنونة هذا الموضوع، لأن الكثير من الباحثين حين يصف ذلك يقول عنه (الكذب والتزوير والافتراء المتعمد) إلى غير ذلك من المصطلحات التي لا تناسب مقام البحث العلمي وإن كانت تناسب من يخون المنهجية العلمية، والغرض من إيراد مثل هذا العنوان هو ما

(1) الصديق نصر (وهم الموضوعية في كتاب دراسات محمدية) بحث ألقي في ندوة البحث العلمي في الدراسات الإسلامية التي أقيمت بكلية الدعوة الإسلامية/ طرابلس.

(2) د. عبد العظيم الديب (المنهاج عند المستشرقين) مجلة كلية الشريعة/ جامعة قطر / 7/ 69 نقلاً عن د. مصطفى نظيف / ابن الهيثم، بحوثه وكشوفه البصرية.

وقع فيه الكثير من المستشرقين من ذكر روايات لم يقل بها أحد، أو إيراد أحاديث أن نصوص تفسيرية ونسبتها إلى غير قائلها في محاولة للوصول إلى تشويه متعمد للحقيقة العلمية، ولإخفاء جرائمهم لا يشيرون إلى مصادرهم، وعدم ذكر المصادر وحده خروج عن منهج البحث العلمي السليم فما بالك إذا أضيف له التحريف والاختلاق، ولن يكون هناك جهد كبير لإحضار شواهد على هذه السمة الاستشراقية التي تغص بها كتبهم، خاصة مشاهيرهم الذين ملكوا ميدان الدراسات الإسلامية في العالم الغربي. من ذلك مثلاً تلك الافتراءات المتوالية التي غزت ميدان الفكر الأوروبي في السنوات الأخيرة، والتي تناولت زوجات الرسول ﷺ، والتي يأتي على رأسها كتاب المرتد سلمان رشدي، والكتاب الذي أشارت إليه جريدة (لاريبوبليكا) بتاريخ 27/ 3/ 1989م، بعنوان (النبيات الإحدى عشرة) للكاتبة الصحفية إيلينا قوتشاردي الذي يمتلىء بالكثير من الافتراءات حول طريقة زواج الرسول ﷺ ونواياه[1].

ومن هذا الجانب أيضاً تزوير الوقائع التاريخيه، ونذكر منه ما قاله المستشرق (إيفريدو الباجي) حول فتح موسى بن نصير لسرقسطة بحد السيف، وأن المسلمين أنزلوا بأهلها من الويلات شيئاً كثيراً، حيث ذبحوهم بالسيف، وأشعلوا النار في البلد، وقتلوا الشبان والرضع بالحراب، ونشروا الخراب والجوع في المنطقة كلها، ويكفي دليلاً على اختلاقه انفراده بهذا الخبر دون غيره من المؤرخين[2].

ويشارك في هذا الاتجاه مستشرقون آخرون منهم خوسيه كوندي[3]

---

(1) ترجم الدكتور/ محمود على التائب العرض الذي نشرته المجلة ولم تنشر الترجمة.

(2) د. مصطفى الشكعة/ منهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية/ ج2 ص297. بحث بعنوان (مواقف المستشرقين من الحضارة العربية بالأندلس.

(3) خوسيه كوندي: Conde. J. A مستشرق إسباني ولد سنة 1715 وتوفي سنة 1820، عمل أميناً لمكتبة الأسكوريال في المكتبة الملكية، ترجم ونشر نزهة المشتاق للإدريسي، له كتاب في النقود العربية، وكتاب في تاريخ السيادة العربية على إسبانيا. انظر: العقيقي / المستشرقون/ ج2/ ص581.

ولويس غاردو[1] حين يذكرون إساءة موسى بن نصير[2] معاملة أهالي قطلونية[3] ونبرة وأرجون[4]، دون إشارة إلى مصادرهم في ذلك، مما جعلهم عرضة لتكذيب مستشرقين آخرين ومنهم كوديرا[5].

3 ـ الخطأ في الاستنتاج:

يتحكم في الاستنتاج العلمي عوامل متعددة بعضها علمي محض، وهو عادة ما يقود إلى نتائج صحيحة وبريئة، وبعضها الآخر غير علمي عادة ما يكون مصدره الهوى والميول الذاتية، وهو ما يفسر أحياناً بعدم الموضوعية، ودارس الاستشراق سيجد أمامه الكثير من هذه الاستنتاجات التي جانبت الصواب بقصد أو بدونه، ولكن سنجد الفرق واضحاً بين الأخطاء المقصودة وغير المقصودة انطلاقاً من الفكرة ذاتها، فالتي لا قصد فيها عادة ما يكون مصدرها العجز العلمي لغوياً كان أو ثقافياً أو حتى ذهنياً، والمقصودة هي تلك التي تفوح منها رائحة المخالفة المذهبية أو الدينية أو العرقية، ومن خلال الشواهد يمكن التعرف على ذلك.

ومن هذه الأخطاء نذكر ما يورده مونتجمري وات[6] عن آيات

---

(1) لويس غاردو: لم أعثر له على ترجمة.

(2) موسى بن نصير: فاتح وقائد عربي شهير ولد سنة 640 وتوفي سنة 715، ولاه عبد الملك بن مروان والياً على البصرة، وولاه عبد العزيز بن مروان والياً على إفريقيا/ فتح القيروان وأرسل أبناءه لفتح عدد من الممالك في الشمال الإفريقي وأتم هو فتح الأندلس. انظر: الموسوعة العربية/ ص1781.

(3) قطلونية: منطقة بشمالي إسبانيا تمتد من جبال البرانس جنوباً على طول البحر المتوسط، تعرف بالإسبانية (كتالونا) ولها لغة خاصة تعرف بالقطالونية.

(4) أراجون: مملكة نصرانية اتسعت رقعتها ونمت قوتها باتحاد إمارة قطلونية وإمارة برشلونه سنة 1137. انظر: محمد عنان/ عصر المرابطين والموحدين/ ص584.

(5) المصدر السابق نفسه. ص297.

(6) مونتجمري وات: Montgamery watt من أشهر المستشرقين البريطانيين المعاصرين ولد سنة 1909، يعمل أستاذاً للدراسات الإسلامية في جامعة أدنبرة وأستاذاً زائراً في عدد من الجامعات الأوروبية، له من الآثار: ما هو الإسلام، الفكر السياسي في الإسلام، الوحي الإسلامي والعالم الحديث. الخ.. انظر: د. ميشال جحا (الدراسات العربية) ص 53.

الاستئذان، حيث يفسر ذلك بأنه دلالة على تدني المستوى الأخلاقي الذي ساد عصر الرسول ﷺ[1].

ومن ذلك أيضاً ما يذكره شاخت من أن السنة تحث على إعطاء الزكاة للسراق والزناة والأغنياء واستنتج ذلك من حديث رواه البخاري.

4 ـ توارث الآراء:

من عيوب المنهجية الاستشراقية الاستناد إلى مرجعية غربية مطلقة فيما يتعلق بالدراسات العربية والإسلامية، فالمستشرقون يتوارثون آراء معينة ينقلها أحدهم عن الآخر دون مراجعة أو تدقيق، خاصة تلك المسائل التي لها علاقة بالقرآن أو النبي أو السنة أو غيرها مما له صلة بها، وهذا الأمر سبب في أن تكون هناك ما يشبه المصادر الثابتة في حركة الاستشراق تمثلت في تربع بعض المستشرقين على عرش الدارسات الإسلامية، حتى صارت آراؤهم لا تناقش وإنما يتلقفها غيرهم من المستشرقين لترويجها فقط دون أن يمروا بدراستها، وربما ساهمت ظروف معينة في تلميع بعضهم ليتبوأوا هذه المكانة، ونذكر منهم جولد زيهر وليفي إشترواس[2]، وماسينيون، ورينان، ودي ساسي وغيرهم كثير.

وكمثال على ذلك ما ذكره الدكتور / فيجانا من قصة محتواها أنه عثر على ترجمة سريانية للقرآن الكريم، جاء بعده مرجليوت[3] بأقل من عام ليقرر

---

(1) م. ت (محمد في المدينة). وانظر ذلك أيضاً في: د. عبد العظيم الديب (المنهاج عند المستشرقين).

(2) شتراوس .Strauss. E مستشرق نمساوي تخصص في التاريخ الإسلامي، خلف عدداً من الآثار منها: اليهود وفتوحات المغول، تاريخ اليهود في مصر وسوريا. انظر العقيقي (المستشرقون) ج2. ص242.

(3) مرجليوت .Margoliouth. D. S مستشرق إنجليزي شهير ولد في لندن سنة 1858، تخرج في جامعة أكسفورد ودرس بها وعد من أشهر أساتذتها، تأثر بآرائه في الشعر الجاهلي الدكتور طه حسين، انتخب عضواً في عدة جمعيات ومجامع علمية عربية وأوروبية، ترك آثاراً كثيرة جداً منها: محمد

أن فيجانا عثر على نسخة سريانية عريقة في القدم مشيراً إلى وجود خلافات ذات بال في المخطوطات القديمة.

ومن ذلك أيضاً ما ذكره ريمون شارل عن تسامح المسلمين: (هذا التسامح في صورة ما إذا كان له وجود ليس في الحقيقة سوى انتصار متواصل على ذات النفس، فالمسلمون يتفاخرون بالقيمة المطلقة التي يعيرها القرآن لمبادىء الحرية والمساواة والتسامح، ثم يسارعون بالتأكيد في السياق نفسه بأنهم الوحيدون الذين يحق لهم أن يطبقوها) ومن ثم فهم (لا يسمحون بالتسامح إلا لأنفسهم، وبنفيهم إمكانية التسامح للغير فإنهم يفرغون التسامح من معناه الحقيقي) وهذه الآراء ينقلها ـ وهو لا يعلم شيئاً عن الإسلام ـ عن كلود ليفي شتراوس وقونيو، وكانت آراء هؤلاء جميعاً في إطار النظرة العنصرية[1].

5 ـ التجزئـــــة:

أي تجزئة الأمور وغياب النظرة الكلية في الحكم على الأشياء وفي التعامل مع بعض القضايا، وخاصة عند الحديث عن الأمور الفقهية، فهم يميلون إلى رأي دون اعتبار بقية الآراء كالميل إلى مذهب وإغفال البقية، أو عدم الالتفات إلى المشهور والمتفق عليه من الآراء والتركيز على ما ضعف منها، وتظهر هذه التجزئة أيضاً في الاستشهادات المقطعة التي يستخدمها المستشرقون بغية تحقيق أغراض معينة، ومن ذلك مثلاً ما فعله مرجليوت حين استشهد بقول الرسول ﷺ: (إنما حبب إلي من دنياكم النساء والطيب دون ذكر بقية الحديث وهو (وجعلت قرة عيني في الصلاة) وهذا القطع للحديث يحقق أمرين:

ونهضة الإسلام/ انتشار الإسلام/ العلاقات بين العرب واليهود/. انظر العقيقي (المستشرقون) ج2. ص518.

(1) د. عبد الوهاب أبو حديبة/ منهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية/ ج2 ص151. بحث بعنوان الحياة الاجتماعية كما صورها بعض المستشرقين.

1 ـ إظهار الرسول ﷺ في الصورة الجنسية التي يحاول المستشرقون وضعه فيها.

2 ـ عدم ذكر الصلاة لإبعاد السامعين عن تقدير مكانتها كما يراها الرسول ﷺ.

6 ـ عدم الدقة في استعمال المصطلحات:

استعمال المصطلحات ذات العلاقة بالإسلام يمثل ظاهرة مرضية في منهج البحث الاستشراقي، فهو مجال واسع دخلت منه الإساءة والتشويه إلى الدين والفكر الديني في الإسلام، ومن ذلك مثلاً استعمالهم لمصطلح الإسلام حين التعبير عن المسلمين، وشتان ما بين المصطلحين في المعنى، ولكن الغرض واضح يتجلى في تقديم الإسلام من خلال سلوك المسلمين وتصرفاتهم، وهو أمر يسهم في الحد من انتشار الإسلام، لأنه يتعمد إخفاء الحقائق عن الآخرين، ومن ذلك أيضاً استعمال مصطلح المحمدية الذي أشرت إليه في بداية هذا الباب.

يضاف إلى هذا نفي عربية بعض المصطلحات ونسبتها إلى لغات أخرى، خاصة منها تلك المصطلحات الدينية، ومن ذلك مثلاً مصطلح (قرآن) الذي يرى بلاشير[1] أنه غير عربي، بل هو دخيل من لغات أخرى مجاورة دون أن يكون هناك سند منطقي واضح، ومثل ذلك ما فعله شاخت حيال مصطلح الزكاة الذي يرى أنه عبري دخيل في العربية وليس أصلاً فيها.

ومن هذا الجانب أيضاً عدم الاستقرار في استعمال المصطلحات،

---

(1) بلاشير Blachere. R. L مستشرق فرنسي ولد بباريس سنة 1900، درس في المغرب وتخرج في الجزائر، عمل مديراً لمعهد الدراسات المغربية العليا بالرباط، ثم أستاذاً لكرسي الأدب العربي بمدرسة اللغات الشرقية بباريس ثم محاضراً بالسوربون، خلف عدداً كبيراً جداً من الآثار العلمية من أهمها: مقتبسات عن أشهر الجغرافيين العرب/ قواعد العربية الفصحى/ تاريخ الأدب العربي/ معضلة محمد/ القرآن/ الخ. انظر: العقيقي/ المستشرقون/ ج1/ ص316.

كالتعبير بمصطلح العرب ثم الانتقال إلى مصطلح المسلمين كما يفعل الكثير من المستشرقين ومنهم مونتجمري وات، وكذلك استعمال كايتاني مصطلح النبي تارة ثم محمد تارة أخرى ثم المصلح في موضع آخر.

7 ـ استخدام صيغ الشك:

يكثر في المنهج الاستشراقي التعبير عن الحقائق التاريخية والدينية بصيغ الشك أو الظن، ولذلك تكثر في أبحاثهم كلمة (من الممكن) (ظن) (يبدو) (لعله) إلى غير ذلك من تعابير الظن وعدم اليقين ومن ذلك مثلاً قول كارل بروكلمان (أعلن محمد ما ظن أنه سمعه كوحي من عند الله)[1]. ولا يخفى على الباحث الأثر الذي أحدثته كلمة ظن في السياق العام للعبارة، والمتتبع لمثل هذه القضايا سيجد منها الكثير في أبحاثهم ودراساتهم.

8 ـ التعميم:

ويتحقق هذا المنهج باستخدام كلمات غير علمية ودقيقة، كلفظ (كل) الذي لا يمكن استعماله منهجياً إلا وفق منطق إحصائي يعتمد التأكد من جزئيات الموضوع، ومثل هذا يمكن أيضاً أن يرد حين ذكر القاعدة أو الرأي دون إيراد شواهد أو أدلة علمية، ومن التعميم أيضاً عدم ذكر المصادر والمراجع المعتمدة في البحث، ومنه كذلك تعمد عدم ذكر من يستشهد بآرائهم كأن يقال: ويذكر بعض العلماء، أو وقد قال ذلك بعض الباحثين أو المفكرين دون أن يشار إلى نماذج منهم، مثل هذا المنهج يفقد صفة العلمية لأنه يفقد الدقة واليقين ويميل إلى المراوغة، وهذه صفات تهد أساس البحث العلمي، والمنهج الاستشراقي حافل بالكثير من هذه النماذج، لأنه في معظمه بحث غرضي يستهدف الوصول إلى أفكار وآراء محددة قد لا تكون لها صلة

(1) كارل بروكلمان/ تاريخ الشعوب الإسلامية/ ص30.

بالمنطق العلمي أو الواقع العلمي، ولذلك فاللجوء إلى التعميم يساعد في الوصول إلى المراد، وللتأكد من بعض نماذج هذا النوع من المنهج يمكن الرجوع إلى كايتاني في مقدمة (حوليات الإسلام)، ويرجع أيضاً إلى يوليوس فلهاوزن[1] في كتابه (الدولة العربية وسقوطها) وغير هؤلاء كثير لا يتسع المقال لذكرهم.

(1) يوليوس فلهاوزن Wellhausen. Julius مستشرق ألماني مشهور ولد سنة 1844 وتوفي سنة 1918، من علماء التاريخ الإسلامي اختص بالفرق الإسلامية، عمل أستاذاً للدراسات العربية والإسلامية في جامعة غوتنجن، له آثار كثيرة من أهمها: الإمبراطورية العربية وسقوطها. الأحزاب المعارضة في الإسلام. تنظيم محمد للجماعة في المدينة. للمزيد انظر: د. ميشال جحا (الدراسات العربية) ص196.